عصر السلطان عبد الحميد

وأثره في الأقطار العربية

الجزء الأول

مؤلف تاريخي هام مصور مستمد من عشرات المصادر الشرقية والغربية



السلطان عبد الحميد خان الثاني

الطبعة الثانية

المطبعة الهاشمية بدمشق



عصر السلطان عبد الحميد

وأثره في الأقطار العربية

١٨٧٦ - ١٩٠٩

حياته الخاصة والعامة ، وقائع عصره ، تفاصيل عهده ، إدارته في الامبراطورية العثمانية ، سياسته في الأقطار العربية

مؤلف تاريخي هام مصور مستمد من عشرات المصادر الشرقية والغربية

يتناول أخطر فترة في التاريخ العثماني استغرقت ثلث قرن كامل يعنى عناية خاصة بالقضايا العربية ويميط اللثام عن كثير من الخفايا

والأسرار التي سبقت الدور الحميدي

تصدره في سلسلة أجزاء متتابعة

المكتبة الهاشمية لأصحابها محمد هاشم الكتبي وشركاه بدمشق

الجزء الأول

يطلب من المكتبة الهاشمية بدمشق ومن سائر المكاتب المشهورة في الأقطار العربية ومن باعة الصحف

الطبعة الثانية

المطبعة الهاشمية بدمشق

بسم الله

خططنا وغايتنا

حكمت الأمبراطورية العثمانية المنقرضة الأقطار العربية أربعة أجيال كاملة، ثم زالت وزال معها عهدها العثماني، والمطلعون من أبناء العربية على هذا العهد قليلون ومعظمهم من الشيوخ والكهول الذين عاصروا العصرين وشاهدوا العهدين وتلقوا علومهم في المدارس العثمانية حيث درسوا على أكمل وجه تاريخ الأمبراطورية. أما الناشئة الجديدة التي تلقت ثقافتها في مدارس عربية فلا تعلم شيئاً عن هذا الدور لأن أغلب المؤلفات التي تبحث عنه وضعت باللغة التركية وهذه قد اختفى أثرها ورحلت عن البلاد برحيل أصحابها، كما أن المؤلفات العربية الموضوعة عن هذا الدور قليلة جداً إن لم نقل نادرة وخاصة ما يتعلق منها بالدور الحميدي الذي يعد من أخطر الأدوار وأعظمها شأناً.

ولا يخفى أن خلو اللغة العربية من مؤلفات تبحث عن الدور العثماني لاسيما القريب منه وتكشف النقاب عن أسراره وخفاياه قد تركت بين أجزاء تاريخنا فجوات بعيدة يجب أن لاتترك خلواً ولا حيلة لمؤرخ في ملئها اليوم إذا لم يطلع على دقائق هذا الدور وهذا مادفع المكتبة الهاشمية التي قد أخذت على عاتقها خدمة الأقطار العربية بنشر كل نافع ومفيد إلى اصدار هذا المؤلف التاريخي الهام في سلسلة أجزاء متتابعة تصدر مرتين في الشهر لتسد به ثلمة في تاريخنا الحديث واضعة في الوقت ذاته بين يدي أبناء العربية سفراً تاريخياً قيماً يصح أن يتخذ مرجعاً لدور من أدوارنا التاريخية. فما لا يدرك كله لايترك جله.

وسنتناول هذه الأجزاء حياة السلطان عبد الحميد الخاصة والعامة ووقائع عصره وتفاصيل عهده الذي امتد ثلث قرن مع وصف سياسته في الأقطار العربية بأسلوب مبتكر جذاب على خير مايمكن من التلخيص والتمحيص وانما اخترنا من الدور العثماني الطويل العهد الحميدي دون سواه لقرب زمانه منا ولأهميته البارزة ولاتصاله الوثيق بالأقطار الاسلامية لأن فيه حاول السلطان عبد الحميد إيجاد اتحاد إسلامي تحت سيطرة الخلافة العظمى تتماسك بواسطتها أجزاء الامبراطورية الواسعة الاطراف فيخيف بها أوربا وبدافع هذه السياسة تقرب من العرب فكان له في بلدانهم سياسة معينة وولى رجالهم المناصب العالية زد على هذا أن شخصية عبد الحميد الداهية في حد ذاتها شخصية فذة فريدة جديرة بالدرس والبحث. وأكثر ماوضع عنه وعن عهده من المؤلفات بعد اعلان الدستور لايتعدى حد القصص والروايات وبعضها نشر خصيصاً بايعاز الاتحاديين بعد تسلمهم الحكم لتشويه سمعته، فكان الجمهور يطالع هذه الأخبار كأنها حقائق واقعة في حين أن الفترة التي تلت اعلان الدستور لم تكن بالفترة الملائمة أو الصالحة لكتابة تاريخ عبد الحميد وعهده، لأن أعمال الملوك والسلاطين والحكام لاتظهر نتائجها إلا بعد وفاة أصحابها بزمن طويل فكلما بعدت عن الزمن الذي عاشوا فيه تضح مافيها من صالح وضار. فقد سجل المؤرخون المتسرعون اسيئات كثيرة للسلطان عبد الحميد ظهر الآن أنها حسنات يشكر عليها تدل على دهائه وذكائه وبعد نظره.

والفصول التي سنوالي نشرها متسلسلة مستمدة من عشرات المصادر الشرقية والغربية في مقدمتها مذكرات سياسية وتاريخية كتبها وزراء السلطان عبد الحميد وصدوره العظام وهي على جانب عظيم من الاهمية وقد أعددنا كمية فريدة من الصور والرسوم لأشهر المناظر والوقائع والشخصيات التي يرد ذكرها في أثناء البحث وهذه الرسوم تشكل في حد ذاتها مجموعة تاريخية أخرى نادرة لكبار رجال الامبراطورية قبل انقراضها

ولنا وثيق الأمل بأن القراء سيقابلون هذه الفصول بارتياح دون أن يتسرعوا في الحكم على مشروعنا بمجرد اطلاعهم على جزء أو جزئين منه قبل أن يطلعوا على بقية الاجزاء المقبلة التي سنحاول اخراجها أحسن من التي سبقتها ان شاء الله. وقد افتتحنا الكتاب بنبذة تاريخية في الامبراطورية العثمانية شارحين فيها أسباب نشأتها وازدهارها وانهيارها وكيفية استيلائها على الأقطار العربية نصل بها الحاضر بالماضي والله المستعان.

دمشق في ١ كانون الثاني سنة ١٩٣٩

المؤلف

نبذة تاريخية في الأمبراطورية العثمانية

نشأتها

ازدهارها

انهيارها

توطئة: ليس في تاريخ الامم والحكومات في الشرق والغرب أعجب من تاريخ الدولة العثمانية . قبيلة من قبائل التتر مؤلفة من اربعمائة واربعين فارساً فقط تغادر أقاصي تركستان وتدخل إلى قلب الاناضول وهنالك يطيب لها المقام فتستقر وتحارب المقاطعات المجاورة لها فتقهرها وتستولي عليها ثم تشيد مملكة تنمو وتنهض بسرعة فائقة فتبطش بمملكتي الروم والفرس ثم تؤسس امبراطورية رفيعة العماد عظيمة الشأن واسعة السلطان ... ترعب أوروبا بامرها كيف نشأت هذه الدولة ؟ وكيف نهضت ؟ وكيف استطاعت أن تؤسس ذلك الملك الضخم الجبار ؟ وماذا جرى بعد ذلك حتى تقلص ظلها وزال أثرها ؟ هذا ما نحاول بيانه وايضاحه في هذه النبذة التاريخية التي جعلناها مقدمة لكتابنا معتمدين فيها على أوثق المصادر والآراء .

***



أثر تاريخي !

(الآرمة) شعار الامبراطورية المنقرضة

اسباب نشأتها

نريد بالامبراطورية العثمانية تلك المملكة الواسعة التي كانت بلادنا السورية وبقية البلدان العربية أجزاء منها والتي كان يحكمها سلاطين آل عثمان لا تركيا الحديثة التي كانت تؤلف الجزء الرئيسي منها ، وقد أسسها الاتراك ووسعوا حدودها بقوة جيوشهم وسطوة سلاطينهم . وأصل الاتراك قبائل تترية رحل طرقت في القرن الاول للميلاد بلاد تركستان الواقعة شرقي بحر قزوين واستوطنتها ثم اعتنقت الاسلام ولما انتهى (جنكيز خان) بفتوحاته إلى تلك البلاد رحل فريق من سكانها إلى آسيا الصغرى تحت قيادة زعيمهم (سليمان شاه) الذي سقط غريقاً في الفرات فخلفه ابنه (ارطغرل) وحدث ان كانت حرب بين علاء الدين السلجوقي وبين الروم والمغول فنصره الاتراك على أعدائه فعرف لهم ذلك واقطعهم بلاداً واسعة ينزلون فيها وخلف عثمان الأول أباه ارطغرل ، وكانت الحروب متواصلة في ذلك الزمان بين السلاجقة والمغول والمملكة السلجوقية تضمحل شيئاً فشيئاً إلى أن انقرضت وانقسمت بلادها إلى عشر أمارات وكانت أمارة عثمان واحدة منها فاستقل فيها سنة ٦٩٩ هـ الموافقة لسنة ١٢٩٩ م وهي السنة التي يبدأ منها تاريخ تأسيس الدولة العثمانية وقد أخذت هذه الامارة تتوسع شيئاً فشيئاً حتى استولت على بقية الامارات المجاورة لها وافتتحت الاقطار والامصار التي حولها وما زالت مساحتها في اتساع حتى تألفت منها امبراطورية عظيمة

وبعد انقضاء ستة أجيال وربع الجيل على هذه الامبراطورية التي قامت على أنقاض المملكة السلجوقية المنقرضة أصابها ما أصاب تلك من الوهن والانحلال فأخذت تتدهور وتتجزأ



محمد الفاتح الذي قضى على الامبراطورية البزنطية

بسرعة وما جاءت سنة ١٩٢٠ حتى كانت قد انقسمت إلى ممالك ودويلات فانسلخت عنها في بادئ الامر دول البلقان ثم انفصلت عنها الاقطار العربية وانحصر ما تبقى منها في قلب الاناضول وما جاوره وهكذا أعاد التاريخ ذاته .

نشأت الدولة العثمانية في العصر الذي انتهت فيه حروب الصليبيين والمغول وانقرضت الدولة العباسية في بغداد فانقادت إلى فكرة الجهاد وقضت الدور الاول من حياتها في مهاجمة الغرب باسم الدين ولما اعتلى عرشها محمد الفاتح كانت قوتها في عنفوان شبابها . فالعثمانيون كانوا قد بلغوا حينذاك مرتبة تجعلهم شعباً قوياً توفرت فيه صفات السيطرة والحكم لاسيما بعد أن ادخلوا الترتيب في نوحٍ كثيرة من انظمتهم الحكومية والاجتماعية واشتهروا منذ اوائل ظهورهم بكونهم شعباً قد هزته عبقرية حربية منقطعة النظير . تألفت الامبراطورية العثمانية من بقايا المملكة السلجوقية المنقرضة وتوطدت دعائمها بعد ذلك على أنقاض الامبراطورية البزنطية الزائلة التي عاشت عشرة قرون ونصف القرن (٣٩٥ — ١٤٥٣) فورثوا عن هذه الاخيرة عاصمتها وأملاكها وبعض احكامها وتقاليدها ولم تعش الامبراطورية العثمانية بعد اضمحلال شقيقتها البزنطية سوى ٤٦٧ سنة فقد ظهرت للوجود كحكومة مستقلة سنة ١٢٩٩ كما تقدم القول وتلاشت نهائياً سنة ١٩٢٠ بتوقيع معاهدة سيفر وعلى هذا تكون المدة التي عاشتها ٦٢٠ سنة وهكذا اختفت هي وسلاطينها عن العيان بعد أن هزت العالمين الشرقي والغربي بحروبها وغزواتها وفرضت سلطانها على شعوب وأقوام كثيرة . وقد أبقت من بعدها تركيا الحديثة وريثتها بعكس الامبراطورية البزنطية التي اختفت بكاملها ولكل دولة عمر تولد صغيرة فتشب وتصل إلى اوج عظمتها ثم ترجع القهقرى فتضمحل وتموت .

امتد سلطان هذه الامبراطورية يوم بلغت قمة مجدها امتداداً عجيباً فضارعت باتساع مساحتها الامبراطورية الرومانية وخفق الهلال العثماني على أحسن الاقاليم من القارات الثلاث : آسيا أوربا افريقيا وضمت تحت جناحيها أقاليم وبلدان اربع عشرة دولة من الدول التي توالت على الشرق في أزمان مختلفة فكانت



قسطنطين الثالث عشر آخر قياصرة البزنطيين

وريثة الاشوريين والبابليين والمصريين والاسرائيليين والبزنطيين والفرس والفينيقيين والسلجوقيين والحيريين والامويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم من الدول والشعوب التي دالت وزالت مع مرور الايام . لهيكل سليمان ، وايوان كسرى ، وخرائب

تدمر ، وقلعة بعلبك ، واهرام الفراعنة وبيت الحكمة ، وآجيا صوفيا استظلت جميعها بظل الهلال العثماني ، ولهذا كان السلطان العثماني يلقب نفسه بملك الملوك وتاج الخواقين .

وفي عهد السلطان سليمان الملقب بالقانوني الذي هز اوربا



عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية

بفتوحاته بلغت الامبراطورية دورها الذهبي فامتدت من نهر الدانوب إلى شلالات النيل ومن الفرات إلى جبل طارق ثم



آخر خلفاء بني عثمان عبد المجيد بن عبد العزيز

أخذ نجمها يميل إلى الافول . وفي هذا الدور كان السلطان العثماني يخاطب ملوك الغرب بهذه الديباجة : « انا سلطان السلاطين وبرهان الخواقين متوج الملوك سلطان البرين وخاقان البحرين وظل الله في الارض» الخ وفي هذا الدور ايضاً تحول البحر المتوسط الذي يريده اليوم موسوليني بحيرة ايطالية إلى بحيرة عثمانية وقد تعاقب عليها ٣٧ سلطاناً اولهم عثمان الأول مؤسس الدولة التي تسمت باسمه واخرهم وحيد الدين الراقد في تكية السلطان سليم بدمشق . ومن هؤلاء ٢٨ سلطاناً جمعوا بين السلطتين الزمنية والدينية فلقبوا بالخلفاء وواحد تفرد بالسلطة الدينية فقط وهو الخليفة عبد المجيد الذي على يده طويت صفحة الخلافة العثمانية وثمانية تفردوا بالسلطة الزمنية فقط وهم الذين ملكوا قبل سليم الأول .

واعتاد المؤرخون أن يقسموا المدة التي عاشتها هذه الامبراطورية إلى ستة ادوار وهي كما يأتي :

الدور الاول: (١٢٩٩-١٤١٣م) ويعرف بدور التأسيس والتوسع ويبدأ باعلان السلطان عثمان استقلال بلاده وينتهي بجلوس محمد الأول على عرش اجداده . وفي هذا الدور الذي تتجاوز مدته القرن استولى العثمانيون على جميع الامارات التي انسلخت عن المملكة السلجوقية المنقرضة في الاناضول ، وفرضوا الجزية على البزنطيين والصرب ومعظم شعوب البلقان واجتازوا البحر إلى اوربا حيث استولوا على أدرنه وجعلوها قاعدة ملكهم وهزموا جيوش الغرب في صحراء قوصوه شر هزيمة واهم حادث تم في هذا الدور ظهور تيمورلنك وانتصاره على السلطان بايزيد وتضعضع بنيان الدولة .

الدور الثاني: (١٤١٣-١٥٩٥م) ويعرف بدور الاستيلاء والفتوحات ويبدأ بعهد محمد الأول وينتهي بجلوس محمد الثالث واشتهر في هذا الدور اربعة سلاطين وهم : محمد الاول الذي جدد بنيان الدولة واقالها من عثرتها بعد واقعة تيمورلنك ومحمد الثاني الذي فتح القسطنطينية وقضى على الامبراطورية البزنطية وسليم الاول الذي فتح سورية ومصر والعراق ونقل الخلافة إلى آل عثمان وسليمان القانوني الذي ثل العروش وحطم كثيراً من التيجان في الشرق والغرب وجعل الدولة أعظم امبراطورية في ذلك الزمان تخفق الهلال من جبال القفقاس إلى بلاد اليمن ومن الدانوب إلى النيل .



السلطان مراد الرابع

الدور الثالث : (١٥٩٥ - ١٦٧٦ م) ويعرف بدور الجمود والتوقف ويبدأ من أيام السلطـان محمد الثالث وينتهي بموت الصدر الأعظم كوبرلي محمد باشا وفيه أخذت الدولة تنحدر شيئاً فشيئاً عن قمة عظمتها فاستولى الفرس على بغداد وسائر البلاد التي أخذت منهم سابقاً ولم يشتهر في هذا الدور من السلاطين سوى مراد الرابع الذي استرجع بغداد وأخمد ثورة الدروز في لبنان

الدور الرابع : (١٦٧٦ - ١٨٢٨ م) ويعرف بدور الانحطاط والتقهقر ويبدأ باسناد الصدارة إلى قره مصطفى باشا الذي ارتد عن أسوار فينا مغلوبا وينتهي بالغاء وجاق الانكشارية واعلان (التنظيمات الخيرية) وجميع السلاطين الذين تعاقبوا في هذا الدور عرفوا بخور العزيمة وفتور الهمة ماعدا سليم الثالث الذي حاول اقتباس الأساليب الاوربية الحديثة واتباعها فكانت نزعته هذه إلى التجدد سبباً للقضاء على حياته ومن هذا الدور فصاعداً أخذت الامبراطورية تتدهور تدهوراً سريعاً هائلاً إذ فيه طغت على البلاد موجات من الضعف والتأخر .

الدور الخامس : (١٨٢٨ - ١٩٠٨ م) ويعرف بدور النهوض والتجدد ويبدأ من تاريخ الغاء وجاق الانكشارية واعلان



السلطان سليم الثالث شهيد الاصلاح والتجدد

الخط الهمايوني القاضي بالمساواة بين كافة طبقات الشعب وينتهي باعلان الدستور سنة ١٩٠٨ على أيدي الاتحاديين وفيه حاولت الدولة إصلاح معارفها وماليتها وجنديتها وتنظيم ادارتها الداخلية وسياستها الخارجية غير أن دسائس النفعيين والمتعصبين من الداخل وعراقيل الغربيين من الخارج حالت دون الاصلاح المطلوب ومن أهم حوادثه زحف ابراهيم باشا المصري واستيلاؤه على سوريا واعلان الدستور لأول مرة بمساعي مدحت باشا ثم



تمثل هذه الصورة الجيوش العثمانية أمام أسوار فينا تحت قيادة الصدر قره مصطفى باشا وقد ارتد عنها مغلوبا وتعد هذه الموقعة من المواقع الفاصلة في التاريخ



السلطان محمد رشاد الخامس
الذي أطلق أيدي الاتحاديين في شؤون الدولة
ولم يبق له من السلطنة سوى الاسم فقط

توقيفه وحروب الدولة المتصلة مع روسيا واستقلال بعض دول البلقان ومحاولة السلطان عبد الحميد تحقيق مشروع الاتحاد الاسلامي .

الدور السادس : (١٩٠٨ - ١٩٢٠) ويعرف بدور الاحتضار وفيه انتقلت سلطة البلاد الفعلية إلى أيدي الاتحاديين الذي قادوا الامبراطورية إلى قبرها بخطوات سريعة ولم يبق في عهدهم لسلاطين آل عثمان من السلطة سوى الاسم فقط وفي هذا الدور استعادت الدولة على أثر إعلان الدستور شيئاً من النشاط غير أن هذا النشاط كان أشبه شيء بالصحوة التي تسبق الموت فما كادت الحكومة تبدأ بتنظيم البلاد حتى هبت العاصفة الدولية . فإن الدول الأوربية هالها أن يستجمع الرجل المريض قوته ويتأهب لرد غارات الطامعين عنه فعجلت بالعمل قبل أن يتم له ذلك التأهب فاعلنت بلغاريا استقلالها وضمت اليونان جزيرة كريت إلى أملاكها وابتلعت النمسا مقاطعتي البوسنه والهرسك ثم استولت ايطاليا على طرابلس الغرب وانفصلت بعد ذلك البانيا واجتاحت دول البلقان معظم تركيا الاوربية وقامت العناصر غير التركية تطالب بحقوقها ولما استعر لهيب الحرب الكبرى دخلتها الدولة وكان دخولها هذا السبب القاضي على حياتها وما كادت الحرب تضع اوزارها حتى لفظت انفاسها وهكذا انهار ذلك الصرح العظيم الشامخ الذي شاده الفاتح وياوز والقانوني ، على ايدي اقطاب الاتحاديين الثلاثة : أنور وطلعت وجمال

وصار ما كان من ملك ومن ملك
كما حكى عن خيال الطيف وسنان



انور



طلعت



جمال

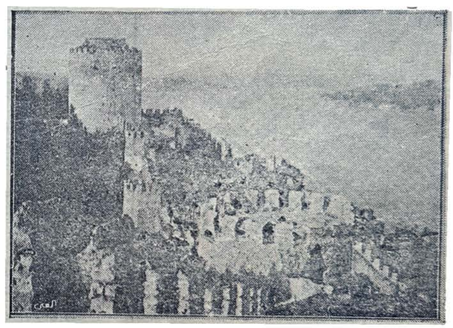
اقطاب الاتحاديين الثلاثة الذين على ايديهم انهارت الامبراطورية

أسباب ازدهارها

لنهوض الامم أسباب كما ان لسقوطها أسباباً لا الصدفة ولا سوء الطالع بعامل في سعادة الأمة أو شقائها إنما ذلك خاضع لقوانين عمرانية ، فكل حادث تاريخي نتيجة لما قبله وسبب لما بعده ومتى تهيأت الاسباب حصلت المسببات .

تقدم معنا القول أن الدولة السلجوقية لما انقرضت انقسمت بلادها إلى عشر امارات احداها الامارة العثمانية التي كانت أصغرهن مساحة وسكاناً مع هذا استطاعت أن تستولي على جميع الامارات وتبتلعها الواحدة تلو الاخرى وتهضمها بسهولة. والمؤرخون يحصرون أسباب هذا النهوض السريع فيما يلي :

أولاً — وجود العثمانيين على حدود الامبراطورية البيزنطية التي كانت قد تفسخت وبلغت سن الهرم فسلطة الامبراطور لم تكن تتجاوز أسوار القسطنطينية ومحافظو الولايات كانوا



أسوار القسطنطينية

تقريباً شبه مستقلين وهذا التفكك كان نذير الزوال والاضمحلال وكثيراً ما حارب الحكام بعضهم بعضاً فكان عثمان الاول سياسياً فأحكم الخلاف بين المقاطعات ثم أخذ يستثمر هذا الخلاف بانحيازه إلى أحد الجانبين وبنصرة فريق على آخر فهذا السبب يعد من الاسباب الرئيسية في نهوض العثمانيين .

ثانياً — ان معظم سكان الولايات المجاورة للعثمانيين كانوا يكرهون الخضوع لبطاركة القسطنطينية ويتذمرون من استبداد حكام الروم ومظالمهم وقد اغتنم هؤلاء المتذمرون فرصة ظهور العثمانيين فأعانوهم على البزنطيين وحالفوهم.

ثالثاً — خلو الميدان للعثمانيين وعدم وجود منافس يزاحمهم في الفتوحات لأن معظم شعوب الامارات التي كانت حولهم لم يكن ليخطر على بالهم ان هذه الشرذمة العثمانية ستؤلف يوماً ما دولة عظيمة الشأن ولهذا لم يزاحموها بل كانوا يتلقون أخبار انتصارها على البزنطيين بمنتهى الارتياح نظراً للروابط الدينية التي كانت تربطهم بها ولما رأت هذه الامارات نهوض العثمانيين السريع قلقت وارتبكت وحاولت عمل شيء ولكن بعد فوت الأوان لأن الامر كان قد قضي !

رابعاً — اتصاف السلطانين عثمان الاول وولده اورخان بالعدل والمروءة والانصاف وبعدهما عن التعصب الذميم وهذا ما جعل المسيحيين يطمئنون إلى حكمها ولما كانت الرعية على سلوك ملوكها كانت هي الاخرى بعيدة عن التعصب . ومن جهة اخرى فان الضرائب التي فرضتها الدولة العثمانية في بدء نهوضها على رعاياها كانت ضئيلة جداً بالنسبة للضرائب التي كانت تجبيها الدول المجاورة من سكانها .

خامساً — ان الدولة منذ اوائل تأسيسها وضعت الانظمة والقوانين اللازمة لمختلف طبقات الشعب فلا الدولة السلجوقية المنقرضة ولا الأمارات التسع التي انفصلت عنها بعد زوالها اهتمت لهذه الناحية الحيوية في حين ان العثمانيين أدركوا قبل غيرهم هذه الحقيقة فأنزلوها المنزلة اللائقة بها .

سادساً — والسبب السادس الذي أدى إلى نهوض العثمانيين وارتقائهم بسرعة اتصاف مؤسس السلطنة عثمان الأول وولده اورخان بالعزم والحزم والثبات وعدم التردد فيما كانا يعزمان عليه . فلم يكونا يشرعان في عمل قبل أن يكونا قد فرغا من غيره وقد تضررت الدولة كثيراً في أيام مراد الأول لتجرده من مزية الثبات والحزم وهذا التردد سرى فيما بعد إلى الأمراء والوزراء أيضاً .

اسباب انهيارها

لكل قوم محارب أخطاء تلازمه في سائر أدواره . فمع ما كان عليه الأتراك من القوة والصولة لم يكن لديهم فضيلة التبصر الطبيعي ولا التبصر المكتسب بطول الوقت والممارسة يتخذونها نبراساً يهتدون به في فتوحاتهم فهم عرفوا كيف يفتحون البلاد ويدوخون الأمصار ولكنهم لم يعرفوا كيف يحكمونها ويحتفظون بها فانهارت امبراطوريتهم .

فمنذ أواخر القرن السادس عشر للميلاد فصاعداً بدأت جراثيم الفساد تنفث سمومها في جسم الامبراطورية مبتدئة من السلاطين ورجال الدولة وفي وقت قصير حولت ذلك الجسم القوي إلى هيكل نخر متداع .

أما العوامل التي أدت إلى الاضمحلال فكثيرة ونحن نورد هنا أهمها لنجعلها مسك الختام ، فمن جملة تلك العوامل سوء إدارة سلاطينها في الأجيال المتأخرة وانزواؤهم في قصورهم وخيانة رجالها المسؤولين ومطامع الدول الدول الأجنبية فيها نظراً لوفرة أملاكها وحسن موقعها وكل ذي نعمة محسود وتألفها من شعوب وعناصر مختلفة الأجناس والمذاهب واللغات وهذه العناصر كثيراً ما أثارت في وجه الدولة مشاكل شبيهة بمشاكل الأقليات في عصرنا وتفشي الرشوة بين موظفيها وانتشار الجهل بين بنيها وتوسيد الوظائف إلى غير أربابها وعدم اتباع سياسة معينة في إدارة البلاد والابتعاد عن الأساليب العصرية الحديثة ومحاربة كل فكرة يشتم منها رائحة الإصلاح والتجدد .

فالسلاطين في الأجيال المتأخرة كانوا يصرفون معظم أوقاتهم في الملاهي والملذات تاركين إدارة البلاد في أيدي بعض النفعيين المتزلفين . ولهذا أشار فؤاد باشا الكبير لما كان مع السلطان عبد العزيز في باريز حين سأله نابليون الثالث من هي أقوى دولة في العالم ؟ فأجابه فوراً الدولة العثمانية ولما طلب منه البرهان قال انتم الأجانب تعملون على هدمها من الخارج ونحن العثمانيين نعمل على هدمها من الداخل ومع هذا ماتزال صامدة قائمة إلى الآن أفليس هذا برهاناً على قوتها وعظمتها ؟

أما مطامع الدول الغربية فيها فأمر معروف فقد ظهرت هذه المطامع التي دعيت فيما بعد بالمسألة الشرقية في عالم السياسة الاوربية منذ القرن الخامس عشر ولكن معناها حينئذ كان مقصوراً على اتقاء الخطر الذي داهم أوربا من جراء زحف العثمانيين تحت قيادة محمد الفاتح ومن خلفه من السلاطين وأخصهم سليمان القانوني ومنذ بداية القرن الثامن عشر تغير وجه المسألة فلم تعد مسألة اتقاء الاخطار وإنما مسألة الابقاء على الاملاك العثمانية وتوزيعها تبعاً لتفاوت الدول في النزعة والمصلحة ولا ريب أن هذا الانقلاب السياسي سببه ما ألم بالعثمانيين من الضعف أخيراً

صدران عظيمان من الصدور العثمانيين وهما :



كوبرلي محمد باشا وقد مر ذكره



فؤاد باشا



سليمان القانوني الذي هز الشرق والغرب بفتوحاته

وكانت الدولة كلما حاولت أن تقوم بمشروع إصلاحي ينهضها من كبوتها تهب الدول الغربية وتخلق أمامها مشاكل ومعضلات تنتهي بحروب تستنفد ما يكون الدولة قد أرصدته من الاموال لتلك المشاريع . أضف إلى هذا إنها لم تتبع سياسة معينة في إدارة البلاد وقد صرح مرة وزير خارجية روسيا الكونت نسلر إلى سفير انكلترا ما يأتي :—

مساكين هؤلاء العثمانيون ! فهم لا يعرفون كيف يسلكون في إدارة البلاد فكثيراً ما يوجه المنجمون أو آغاوات الحرم الزنوج سياسة الدولة إلى الجهة التي يريدونها وهذا التصريح وإن كان لا يخلو من الغلو ففيه الشيء الكثير من الحقيقة الواقعة . والادوار الهدامة التي لعبتها بعض نساء القصر أمثال « كوسم سلطان » و « تالي خاصكي » و « شكر يارة » و « شكر بولي » على مسرح البلاد شهيرة في التاريخ العثماني . وكان لتدخل الجواري الحسان في شؤون الدولة تأثير كبير على مجرى سياستها وقد عقد بعض المؤرخين فصولا حول هذه القضية تحت عنوان دولة النساء في الامبراطورية العثمانية وقد قوبلت جهود ومشاريع الاحرار المصلحين بالدسائس والمؤامرات في سائر الاوقات بمعاكسة النفعيين من الداخل وبتأثير الغربيين من الخارج ففي أيام عبد الحميد حاول المصلح الشهير مدحت باشا لما كان والياً على الشام إقناع أولياء الأمور في الاستانة بوجوب وضع نظام للامبراطورية شبيه بالنظام القائم اليوم في سويسرا والولايات المتحدة باميركا يمنح كل جزء منها استقلالا داخلياً وإدارة لا مركزية واسعة ومن ثم يربطها باتحاد متين عام تحت سيادة الخليفة السلطان وهو ينوي من وراء هذا المشروع ضمان حياة الامبراطورية والابقاء عليها بايجاد مادة لزجة معنوية تتماسك بواسطتها اجزاؤها كما تتماسك اليوم أجزاء الامبراطورية البريطانية ولكن السلطان عبد الحميد القائم في ذلك الزمان شك في هذا النظام بدسائس بعض رجال القصر الذين صوروا له المشروع كوسيلة يريد مدحت باشا بواسطتها إعلان خديويته على سورية .

وهنالك بعض المؤرخين يعتقدون أن فتح القسطنطينية كان في الواقع بدء عهد الانحلال العثماني الذي ظلت في أبانه المسألة الشرقية مطروحة على بساط البحث حتى حلها الساسة في مؤتمر السلام عقب الحرب الكبرى .

* * *

إننا بمطالعتنا هذه اللمحة التاريخية التي وقفتنا على خلاصة تاريخ الامبراطورية العثمانية وعلى أسباب نموها وازدهارها وانهيارها نتوصل إلى حقيقة ناصعة وهي أن الاتحاد والتضامن والتآخي والتضحية والبسالة والاقدام كانت دوماً من العوامل الضامنة بقاء الامم كما أن الانقسام والتناحر والانانية وفساد الاخلاق كانت في كل الازمان المعاول الهدامة في كيان الاقوام والشعوب .



الجيوش العثمانية على أبواب القسطنطينية

فيجدر بالاقطار والبلدان العربية المتوثبة اليوم للنهوض وهي في بدء حياتها الاستقلالية وفي أوائل دورها الانشائي الاعتبار بعاقبة امها بالامس الامبراطورية العثمانية وبخاتمة جدتها بالامس الاول الامبراطورية البزنطية وقد قالت الآية الكريمة ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .

لقد علمنا من مستهل البحث أن أمارة بني عثمان استولت على بقية الامارات التي انفصلت عن المملكة السلجوقية والفت بعد ذلك امبراطورية فهل يعيد التاريخ ذاته ويستولي أحد الأقطار العربية على بقية البلدان الناطقة بالضاد ويؤلف الامبراطورية العربية المنشودة . ذلك ما سيطلعنا عليه الغد وإن غداً لناظره قريب .

كيف دخلت الأقطار العربية تحت حكم الامبراطورية العثمانية

في أواخر سنة ١٥١٦ ميلادية الموافقة لسنة ٩٢٢ هـ دخل السلطان العثماني سليم الاول مدينة دمشق(يوم السبت أول رمضان



السلطان سليم الأول الملقب بياوز

٩٢٢ هـ) على رأس جيش لجب جرار فخفقت في سماء عاصمة بني أمية راية الهلال العثماني لأول مرة في هذه الآفاق وطويت راية المماليك الشراكسة بعد انهزامهم في معركة (مرج دابق) الشهيرة (١٤ آب ١٥١٦) وسقوط ملكهم الاشرف (قانصوه الغوري) شهيداً شريفاً في ساحة القتال بعد نضال مجيد فبسط سليم الفاتح سلطانه على سورية من أقصاها إلى أقصاها وظل علمه خافقاً عليها مدة أربعة أجيال حتى كان يوم ٣٠ ايلول سنة ١٩١٨ وفيه دخل الجيش العربي الظافر دمشق فاتحاً ونشر الراية العربية المجيدة لزاهية الألوان .

دخل سليم الأول دمشق ، دخول الساحق الماحق ، وقد سحق جيش المماليك في موقعة مرج دابق ، التي أقامت فاصلاً بين عهد وعهد وبين عصر وعصر ، وهو يحمل من خطبة الجمعة بجامع حلب لقب خادم الحرمين الشريفين وسلطان البرين وخاقان البحرين ويتأهب للاستيلاء على مصر وانتزاع الخلافة من المتوكل آخر الخلفاء العباسيين ، وكانت الفتنة قد استيقظت في دمشق ولكنها لم تدم غير بضعة أيام ثم أخلدت المدينة للسكينة وقدمت خضوعها للفاتح الجديد .

وسار بعد ذلك السلطان سليم إلى مصر ، فدخل القاهرة في ٣ محرم سنة ٩٢٣ هـ (٢٦ كانون الثاني ١٥١٧) بعد ان استولى على فلسطين وجعل مصر أيالة عثمانية وكانت مكة تابعة لها فدخلت معها في حكمه وشنق طومان باي آخر ملوك الشراكسة المماليك ثم عاد إلى دمشق في طريقه إلى الاستانة مستصحباً المتوكل وهو الخليفة الخامس والخمسون والاخير من الخلفاء العباسيين الذي اضطره



معركة مرج دابق دابق



المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين

إلى التنازل عن الخلافة فجمع السلطان بذلك بين السلطتين السياسية والدينية وتلقب بامير المؤمنين واصبحت الخلافة في بيت سلاطين بني عثمان إلى أن الغاها كمال اتاتورك اخيراً كما يعلم الجميع .

***

هكذا دخل السلطان سليم الأول دمشق عام ١٥١٦ ، منصوراً وعاد اليها ظافراً من مصر وقد نصب راية الهلال فوق الاهرام



كمال اتاتورك
الذي ألغى السلطنة والخلافة وانشأ تركيا الحديثة

والنيل وقضى نهائياً على دولة الشراكسة المماليك ، والقراء الكرام راغبون بلا شك في معرفة شيء عن حياة هذا السلطان الذي اضاف بلادهم إلى امبراطوريته فنقول :

هو السلطان التاسع والخليفة العثماني الأول الملقب بياوز أي الشديد الجبار كان من اعاظم الملوك المشهورين في العالم وان فخار العثمانيين بسلطانهم هذا لا يقل عن فخار المكدونيين بالاسكندر والرومان بيوليوس قيصر والافرنسيين بنابليون والروس ببطرس الاكبر .

كان شديد البطش يقتل وزراءه في ساعة غضب بدون سبب ومن أمثال الأتراك السائرة في تلك الأيام « من أراد الموت فليكن وزيراً للسلطان سليم ! » وعرف ببساطة هندامه وخشونة معيشته فكان يعيش كأحد الجنود في ساحات الحروب وقد خلف ديوان شعر حوى ابياتا تؤيد القول المأثور (كلام الملوك ملوك الكلام) وشعراء الأتراك ينعتونه بصاحب السيف والقلم وهو السلطان الوحيد الذي قام في مدة قصيرة بأعمال خطيرة وفتوحات جسيمة . ففي خلال حكمه الذي لم يتجاوز الثماني سنوات افتتح بلاداً تعادل بمساحتها واهميتها البلاد التي افتتحها أسلافه في خلال ٢٠٠ سنة فتأمل ولا نغالي إذا قلنا انه فاق بعض الفاتحين المشهورين كالاسكندر وتيمورلنك وهولاكو وسواهم لأن فتوحات هؤلاء كانت فتوحات عابر سبيل . أما فتوحات السلطان سليم فقد احتفظ بها أربعة أجيال .

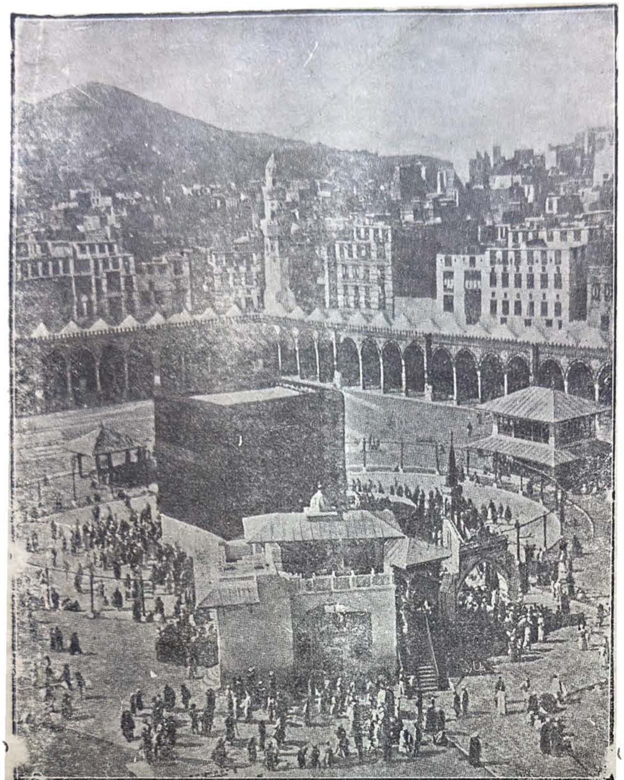
استظلت البلاد العربية في عهدها العثماني بظل ثمانية وعشرين سلطانا جمعوا بين السلطنة والخلافة اولهم سليم الاول الذي دخل دمشق فاتحاً وآخرهم محمد وحيد الدين السادس الذي دخلها جثة هامدة إلى مقره الأخير في التكية التي شادها جده الأعلى سليم . فما أعظم الفرق بين دخول السلطانين وما أبعد الشبه بين حظ الاثنين ! سليم الاول يدخل ظافراً منصوراً وهو جالس على عرشه تحف به المهابة والسطوة والمجد كلمة الموت مخفية بين شفتيه والخليفة العباسي أسير بين يديه ! ووحيد الدين السادس والأخير يدخل محمولا على الأعناق وهو مسجى على نعشه لا يحمل من سناء الملك وأبهة السلطان سوى راية عثمانية عتيقة تجلل تابوته الوضيع فسبحان من يغير ولا يتغير ويهز الملك ولا يهتز ملكه .

أفرأيت ايها القارئ الكريم كيف يفنى مجد الملوك ويذوي عز السلاطين ! ويزول حكم الظافرين ويسقط صولجان السيادة من أيدي الغزاة الفاتحين ؟ وهل آمنت بأن المستقبل لله ، وبأن الملك لله ، فلا ملك يدوم على الأرض ، ولا سلطان .

***

هل ارتاحت البلاد العربية لحكم الامبراطورية العثمانية ؟

اننا نترك الجواب عن هذا السؤال إلى الاستاذ العلامة محمد كرد علي الذي صور في خططه الشهيرة العهد العثماني بابلغ ما يمكن تصويره فقال في حالة البلاد على أثر الفتح العثماني ما يأتي :



مكة المكرمة دخلت تحت حكم العثمانيين باستيلاء السلطان سليم على مصر فلقب بخادم الحرمين الشريفين

« وفي ذهاب السلطان سليم إلى مصر وعودته إلى الشام ، قاسى أهل البلاد من اعتداء جنده كثيراً فقطع الأجناد الاشجار ، ورعوا الزروع ، وأخرجوا الناس من بيوتهم في البلاد التي احتلوها ، واعتدوا على أعراض الناس فتضرر الناس بذلك وعرفوا انهم أخطأوا في نفض أيديهم من أيدي الشراكسة لأول ما بدا لهم من قوة العثمانيين وخاب رجاؤهم في أن تغير الدول قد يكون منه رحمة والغالب أن فيه نقمة لا نعمة . فقد خابت الظنون لما جاء دور العمليات وغلط في الحساب من كانوا يتوقعون من الدولة الجديدة كل الخير وان الحظ حظهم متى خفقت أعلامها عليهم وكانوا يرقبون طلعة العثمانيين منذ سنين رقبة هلال العيد للاستمتاع بحكمهم الرشيد وعهدهم السعيد ولطالما ساء فأل من يهتفون للأمر الجديد » .

ولم يكن خاتمة هذا العهد في البلدان العربية بأحسن من بدايته فالفظائع التي اقترفها أحمد جمال باشا الطاغية لا تزال عالقة بالاذهان ماثلة أمام العيان وقد صور احد الكتاب المصريين العهد العثماني بعهد الارهاب والارتباك والارهاق فمن فتك لا يكاد يستقر فيه السيف في قرابه إلى مصادرة للاملاك والاموال إلى خوف شامل وإلى ثورات في كل مكان .

وقصارى القول إن الاقطار العربية اصيبت في العهد العثماني بتراجع في كل شيء وتدهور في كل شيء وانهزمت فيه العربية أمام هذا الفساد الاجتماعي والعنف السياسي والتقهقر الادبي .

اسرار خلع السلطان عبد العزيز وانتحاره

تمهيد: لا يستطيع القارئ تفهم العصر الحميدي تفهماً صحيحاً إذا لم يلتفت قليلاً إلى الماضي ويلقي نظرة سريعة على الحوادث التي كان لها علاقة وثيقة بجلوس السلطان عبد الحميد على العرش.

ولا يخفى أن الوقائع التاريخية سلسلة متصلة الحلقات لابد من ربطها بما سبقها من الحوادث الجسام. ولهذا سنشرع بسرد تفاصيل حادثتي خلع السلطان عبد العزيز وإنتحاره ، وما تلاهما من الوقائع ونعقبهما باخبار سلطنة مراد الخامس وتفاصيل عهده القصير المحدود ومن ثم ننتقل إلى بحث عصر السلطان عبد الحميد بعد ما نكون قد مهدنا له بمثل هذا التمهيد.



السلطان عبد العزيز

تعد حادثة خلع السلطان عبد العزيز وانتحاره من المواقف الحاسمة في التاريخ العثماني. ولم يختلف المؤرخون في تفاصيل قضية كاختلافهم في دقائق وتفاصيل هذه الحادثة التي لا يزال كثير من نواحيها غامضاً يحيط بها ستار كثيف من الشك والابهام. مع ان زمن وقوعها ليس ببعيد عنا. وحتى المؤلفات والوثائق التي نشرت بعد انهيار الامبراطورية في ظل الجمهورية التركية والتي كان يؤمل أن تكشف الستار عما خفي في هذه المسألة من الاسرار لم تأت بشيء جديد ...

فإلى أن ينشر المنقبون الباحثون وثائق جديدة تلقي الشعاع على الظلمات التي تكتنف القضية سنقبل بما دونه المؤرخون في المصادر التي بين أيدينا.

وهنالك فريق من مؤرخي الاتراك يعتقدون أن اقصاء السلطان عبد العزيز عن الحكم الذي يعد أول انتصار للاحرار على الادارة المستبدة المطلقة أضر بالدولة اكثر مما افادها وأدناها من زوالها فقد عاد هذا الخلع على البلاد بالشر عوض الخير الذي توقعه القائمون بهذه الحركة وهم غير عالمين بان شؤون البلاد ستتطور بسرعة زائدة تؤدي إلى تسليم الملك إلى عبد الحميد الذي انصرف قبل كل شيء إلى الاحتفاظ بعرشه بعد أن رأى بأم عينه كيف ثل نفر من الوزراء عرش عمه في ليلة وضحاها فسار على خطة ما كان ليسير عليها لولا حادثة الخلع هذه.

وفي الواقع أن الانهيار في الامبراطورية العثمانية في العهد الاخير يبدأ بانهيار العرش العزيزي فخالعو عبد العزيز اقتلعوا بايديهم أول حجرة من بناء الامبراطورية في دورها الاخير فتساقطت على اثرها بقية الاحجار الواحدة تلو الاخرى ولم تكن حركتهم مجردة من كل غرض شخصي فكثير من الوزراء الذين اقدموا على هذا العمل كانوا ناقمين على عبد العزيز لأسباب شخصية لا مجال لذكرها.

***

من هو السلطان عبد العزيز ؟

هو السلطان الثاني والثلاثون والخليفة الرابع والعشرون من خلفاء بني عثمان ولد سنة ١٨٣٠ وجلس على العرش في سنة ١٨٦١ وخلع في ٣٠ ايار من سنة ١٨٧٦ ومات منتحراً في

قصر جراغان بعد خلعه بأربعة أيام . فكانت مدة حياته ٤٦ سنة قضى منها ١٥ سنة على العرش وامتاز عهده بغنى الدولة بالرجال وببعض الاصلاحات التي تمت على أيدي صدريه عالي باشا وفؤاد باشا الوزيرين المشهورين في التاريخ العثماني الحديث ولم يتمتع بسلطنته وينحرف عن خطته إلا بعد وفاة صدريه عالي وفؤاد باشا وهو السلطان العثماني الوحيد الذي قام برحلة إلى مصر وأوربا وقد أناب عنه في الأستانة في أثناء رحلته عالي باشا واستصحب معه فؤاد باشا وابنه الأمير يوسف عز الدين وابني أخيه الأميرين مراد وعبد الحميد فزار معرض باريز



السلطان مراد الخامس لما كان ولياً للعهد

سنة ١٨٦٧ حيث بالغ الافرنسيون في اكرامه واستقبله نابليون الثالث استقبالاً يليق بالملوك العظام . ولما زار لندن أكرمت جلالة الملكة فكتوريا وفادته وحل ضيفاً على الحكومة والشعب معاً . وقد رغبه في هذه الرحلة وزيراه عالي وفؤاد لكي يطلع على مدنية الغرب ويقتبس منها مايراه صالحاً لبلاده .

محاولة نقل ولاية العهد الى ابنه

وحاول في أواخر عهده أن ينقل وراثة الملك من بعده إلى ابنه يوسف عز الدين وساعده على ذلك صدره محمود نديم باشا والسفير الروسي الجنرال ابغناتيف فلم يفلح لأن الشعب قاوم هذه الفكرة



رسم آخر للسلطان عبد العزيز



الجنرال ابغناتيف السفير الروسي في الاستانة والمسيطر على شؤون الدولة في العهد العزيزي

مقاومة شديدة وتمهيداً للوصول إلى غايته منح اسماعيل باشا خديوي مصر فرماناً يقضي بانتقال الحكم إلى أكبر أنجاله بدلاً من الارشد في العائلة وبسبب إسرافه وتبذيره في أواخر أيامه وانقياده إلى مشورة «نديمه» الصدر وازدياد النفوذ الروسي في دوائر الدولة ازداد استياء الشعب فقرر الوزراء والعلماء اقصاءه عن العرش ولم تسلم هذه القضية من تأثير ودسائس الدول الأجنبية ٠

السلطان عبد العزيز في اواخر ايامه

كان السلطان عبد العزيز في أواخر أيامه قد أصبح كثير المخاوف والهواجس يشعر بشيء كثير من الاضطراب والقلق لا يستقر على حال ولا يهدأ له بال وقد عمد هو ووالدته إلى تقوية الجهات والمصادر التي كانا يتوقعان منها المعونة والنجدة إذا مادعت الحاجة إلى ذلك ولم يتركا وسيلة من الوسائل في هذا الشأن إلا وتذرعا بها فأمرا بذبح قرابين كثيرة وتوزيعها على أحياء الفقراء في الآستانة وجمعا في القصر جيشاً من أطفال الفقراء والمحتاجين وأمر بمنح كل واحد من هؤلاء الأطفال ثياباً وطعاماً وليرة عثمانية ولم يكتفيا بكل هذه التدابير بل وزعا أيضاً خمسة آلاف ليرة ذهبية على أفراد الدرك في العاصمة فضلاً عن المبالغ الطائلة التي وزعت بمعرفتها على أفراد الجيوش المرابطة في الآستانة غير أن الجميع كانوا قد أعرضوا عنه ولم يظهر منهم أقل ميل للدفاع عنه ٠

تدخل انكلترا وروسيا

وكادت قضية ولاية العهد وانتقال وراثة الملك تنتج خلافاً بين روسيا وانكلترا فكانت روسيا تعضد فكرة ولاية عهد يوسف عز الدين متوقعة ظفراً لسياستها من وراء ارتقائه العرش ٠ أما انكلترا فكانت تعارض هذه الحركة معارضة شديدة مطالبة بابقاء قانون الوراثة على سابق عهده وبانتقال السلطنة إلى الأمير مراد افندي وارثها الشرعي مؤيدة بذلك رغائب الأحرار العثمانيين وعزمت عزماً أكيداً على اجبار عبد العزيز بقبول وجهة نظرها ومعاكسة النفوذ الروسي وهكذا كان السفيران الانكليزي والروسي يتنازعان السيادة والنفوذ فانحاز الأول إلى السلطان عبد العزيز ورجاله والثاني إلى مدحت وأنصاره واحتياطاً للطوارئ أمرت انكلترا أسطولها في البحر المتوسط بالابحار إلى خليج بشيكة على فم الدردنيل لاسيما بعد ماشاع في أندية الاستانة أن روسيا على وشك إرسال أربعين الف جندي روسي من اودسا لارغام الاهلين على قبول ولاية عهد يوسف عزالدين ويروى أن السفير الروسي الجنرال ايغناتيف بعد خلع عبد العزيز عرض على الأمير يوسف عز الدين الذي كان قد أصبح مشيراً وهو في العشرين من عمره أن يأتي بجنود روس يجلسونه على عرش أجداده فرفض هذا الاقتراح بإباء وشمم ٠

مساعي مدحت باشا

واغتنم مدحت باشا هذه الفرصة فبث روح الثورة في نفوس



مدحت باشا خالع السلاطين وأبو الدستور

العلماء والمدرسين وطلبة العلوم والمشايخ في الجوامع وما زال يحرضهم ويصور لهم الأخطار المحدقة بالبلاد حتى هب هؤلاء هبة واحدة ذعر لها السلطان عبد العزيز وشعر أن العرش يهتز تحته ٠

ثورة طلاب العلوم وزحفهم الى القصر

في صباح يوم الخميس الواقع في منتصف شهر ربيع الاول عام ١٢٩٣ هجرية خرجت مظاهرة صاخبة مؤلفة من طلبة العلوم ورجال الدين والمشايخ بعد أن تجمعت حوالي جامع السلطان محمد الفاتح وسارت زاحفة نحو وزارة الحربية ثم اتجهت نحو الباب العالي ونادت باسقاط الصدر الاعظم محمود نديم باشا وشيخ الاسلام حسن فهمي افندي اللذين تواريا عن الانظار وفرا كما يفر الطائر

من الصياد خوفاً من نقمة الشعب المائج وجمد الدم في عروق عبد العزيز وعبثاً حاول رجاله تفريق شمل المتظاهرين الذين مكثوا إلى صباح اليوم التالي في اماكنهم مصرين على تحقيق مطالبهم ولم يتفرقوا إلا بعد أن أعلن لهم السلطان عزله محمود نديم من الصدارة العظمى وحسن فهمي من مشيخة الاسلام وقد جرت هذه المظاهرة قبل حادثة الخلع باربعين يوماً .

السلطان يعقد اجتماعاً في القصر

وفي أثناء هذه المظاهرة عقد السلطان اجتماعاً برئاسته في المابين مؤلفاً من والدته ووزير الخارجية واثنين من أنجاله ومحافظ الاستانة وقاضي عسكر الروم(ايلي) واثنين من كبار العلماء ليبحث قضية المتظاهرين والنظر في مطالبهم فأشارت والدة السلطان باستعمال الشدة وباغلاق المعاهد الدينية وطرد طلابها إلى خارج الأستانة بعد رفض مطالبهم رفضاً باتاً غير أن بقية المجتمعين لم يستصوبوا رأيها بل اقترحوا على السلطان أن يأخذ الأمور باللين بعد أن شرحوا له الأخطار التي لابد من وقوعها فيما إذا ظهرت ثورة مسلحة في العاصمة فوافق السلطان على وجهة نظرهم وصرح للحضور أنه يرضى بتلبية مطالب المتظاهرين للمرة الأولى والأخيرة ولكنهم إذا عادوا ثانية إلى مثل هذه الحركة فسيضطر الى انزال العقاب الصارم بهم وكأنه أراد بهذا التصريح أن يسلي نفسه ويخفف عنها هول الصدمة .

ونصب خير الله افندي شيخاً للاسلام ولم يسلم بتعيين مدحت باشا صدراً أعظم — كما طلب المتظاهرون — بل أسند الصدارة إلى محمد رشدي باشا فاستاء من ذلك مدحت باشا كثيراً

محمد رشدي باشا الصدر الاعظم

كان محمد رشدي باشا رجلا اشتهر بطيبة قلبه وصفاء نيته إلا أنه كان سريع الانقياد سهل الاقتناع كثير التقلب في آرائه السياسية عديم الثقة بنفسه ينجذب نحو أصحاب النفوذ من الوزراء وكان مدحت باشا يريد استخدامه لتنفيذ مقاصده . فأوعز إليه أن يطالب عبد العزيز بالتنازل عن خمسة ملايين ليرة من ثروته الخاصة لإنفاقها على الاصلاحات الضرورية وبالاقلاع نهائياً عن فكرة ولاية عهد ابنه يوسف عز الدين فلم يرض عبد العزيز بذلك فكان رفضه هذا أعظم سبب لخلعه كما سيأتي .



الصدر الأعظم محمد رشدي باشا

كيف نشأت فكرة الخلع

وعلى أثر هذه المظاهرة التي انتهت بانتصار الطلبة على السلطان نشأت فكرة الخلع وقويت فتألف حزب خفي من الوزراء والعلماء وكبار الموظفين الملكيين والعسكريين لتحقيقها وكان مدحت باشا أول من فكر فيها فأخذ يبثها بين الأوساط العالية وعمل على اقناع زملائه بتنفيذها لاسيما بعد ان انضم إليه حسين عوني باشا وزير الحربية الملقب في ذلك العهد بلقب



السر عسكر حسين عوني باشا

مر عسكر جهان وكان يتمتع بنفوذ عظيم في الأوساط العسكرية . له سلطة واسعة على الجيش .

حمل السلطان على تعيين مدحت باشا وزيراً للدولة

ولما فشل المتظاهرون في اسناد الصدارة إلى مدحت باشا أخذوا يعملون على ادخاله هو وخليل باشا ودرويش باشا إلى مجلس الوزراء بصفة وزراء للدولة لتقوية العناصر التي يتألف منها المجلس .



درويش باشا

ويقال أن السلطان عبد العزيز لو أبدى حتى في أيام الأزمة الأخيرة بعض الاهتمام الدال على شعوره بحراجة الموقف الذي انتهت إليه البلاد لما اصيبت شعرة من رأسه بسوء ولكن لسوء حظه لم يكن في وسعه ان يتغلب على المشاكل التي كان يثيرها هو نفسه وبعض العناصر المعادية للدولة .

كتاب محمود نديم باشا الى السلطان

ولما أقيل محمود نديم باشا من الصدارة رفع إلى مولاه السلطان كتاباً قال فيه : انني مقتنع تمام الاقتناع بان استعادتكم الخاتم الهمايوني من هذا العبد العاجز لم يكن بارادتكم وانما ارغمتم عليه إرغاماً ولهذا لست بمتأثر من اقالتكم اياي من منصبي بل قد كنت ولا ازال العبد المخلص والخادم الأمين المطيع لجلالتكم ولسائر أفراد الأسرة السلطانية المالكة وسأظل كذلك دوماً . ومن ثم تطرق إلى ذكر ثروة جلالته الخاصة فأنذره بلزوم اخراجها من العاصمة وايداعها إحدى المحلات الأمينة قبل فوت الأوان .

وقد النسل محمود نديم باشا بانذاره هذا إلى نفس السلطان عبد العزيز من أضعف ناحية فيها فما كاد السلطان يقف على ما جاء في كتاب نديمه حتى وقع في ارتباك عظيم وحصر جهوده وتفكيره في ايجاد طريقة مناسبة ينقل بهما قسما من ثروته إلى مكان أمين وأخيراً قرر بايعاز من محمود نديم باشا أن يراجع السفير الروسي الجنرال ايغناتيف ويطلب منه احضار بارجة حربية من روسيا تنقل له بعض ثروته إلى روسيا ولم يكن السلطان ولا والدته واثقين من البوارج العثمانية ليودعا فيهاهذه المشحونات الغالية الثمن وقد لبى الجنرال ايغناتيف طلب السلطان على الفور واجابه انه مستعد لتنفيذ رغائب جلالته .

المؤامرة تدبر تحت طي الكتمان

وبينما كان السلطان مرتبكاً يعمل على انقاذ ثروته الذاتية كان المتآمرون عليه يدبرون الخطط تحت ستار الكتمان وقد بقيت هذه المؤامرة مكتومة على السلطان ووالدته وعلى محمود نديم والجنرال ايغناتيف ، فلم يتصل باحدهم خبرها بفضل تدابير المتآمرين وحكمتهم .

وإلى دهاء مدحت باشا وخير الله افندي شيخ الاسلام يعود كل الفضل في وضع هذه التدابير السرية باسلوب محكم للغاية . لم يكن مدحت باشا على صلات حسنة مع مولاه السلطان بل كان كما تقدم القول ممتعضاً منه امتعاضاً شديداً لارغامه محمد رشدي باشا المعروف بالعجز والخور على قبوله منصب الصدارة في حين ان الشعب وطلبة العلوم كانوا يطالبون بهذا المنصب لمدحت باشا .

ومن هنا يتضح لنا أن مدحت باشا لم يتجرد عن انانيته في القضية فلو اظهر شيئا من التسامح ونسي بعض الأحقاد القديمة وتعاون مع السلطان لا جتنب هو وزملاؤه كارثة زعزعت اركان الدولة في أيامها الأخيرة .

زيارة مدحت باشا الى شيخ الاسلام

وفي يوم السبت الواقع في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٩٣هـ ذهب مدحت باشا إلى زيارة شيخ الاسلام الجديد لهنئه بمنصبه وانحصرت هذه الزيارة التي دامت نحو نصف ساعة في الاحاديث والمجاملات الرسمية ولما هم بالانصراف قال لشيخ الاسلام اني قادم اليك بعد ثلاثة ايام لاستشارتك في امر هام شرعي على غاية من الخطورة وما ان حلّ اليوم الثالث حتى عاد اليه مدحت مستصحباً في هذه المرة نفراً من العلماء والمدرسين فلزم الصمت في هذه الزيارة وترك الكلام إلى رفاقه .

استهل العلماء حديثهم مع شيخ الإسلام بلفت نظره إلى وجوب خدمته أولا الدين والشريعة ومن ثم السلطان ورجاله ثم انتقلوا الى البحث عن الحالة الأليمة التي انتهت اليها الدولة فبينوا له ما اصاب الإسلام والبلاد من التدني والانحطاط من جراء سياسة السلطان ثم سألوه أي الامرين أجدر واولى بالاحتفاظ ؟ العرش أم صاحبه الذي هو اليوم هنا وغداً في القبر ؟ وطلبوا حكمه النهائي في هذا الشأن .

تهديد العلماء لشيخ الاسلام

وكان شيخ الاسلام يصغي إلى الحديث بمزيد الاهتمام دون ان يحير جواباً ولما آنس العلماء منه تردداً في اعطاء الجواب وثب احدهم قائما على قدميه وهدده قائلا : اعلم أن سلفك نحن الذين طردناه من هذا المنصب ! ولا تنس اننا سنعاملك بنفس المعاملة إذ انت لم تنصرف إلى اتخاذ التدابير العاجلة لصيانة الاسلام وتعزيزه في الغرب

ولما سمع هذا التهديد أجاب أنه على استعداد تام للعمل على تبديل ادارة الحكومة العثمانية وحتى على اسناد العرش إلى سلطان آخر إذا دعت الحاجة إلى ذلك اعلاء لشرف الدين الاسلامي المبين

مدحت باشا يتكلم

فخرج إذ ذاك مدحت باشا عن صمته الطويل وشرع في الكلام وافهم شيخ الاسلام ان مؤازرته وحدها في هذا الشأن لا تفي بالحاجة وإنما يطلب منه أن يأخذ المهمة كلها على عاتقه لان مركزه الديني السامي يحول دون مؤاخذته شخصياً فيما إذا فشلت المؤامرة وافتضح سرها وعلى كل الاحوال فإن طلبة العلوم على استعداد لإنقاذه من غضب السلطان عند اللزوم فقطع شيخ الاسلام عهدا على نفسه أن يقوم بتنفيذ كل ما يطلب منه ومما تقدم يتضح للقارئ أن قضية تنحية السلطان عبد العزيز عن العرش وضعت اسسها في هذا الاجتماع التاريخي .

اطلاع الصدر على فكرة الخلع

وفي صباح اليوم التالي لهذا الاجتماع قابل شيخ الاسلام الصدر الأعظم محمد رشدي باشا واوقفه على ماتم القرار عليه ومع ان الصدر الاعظم كان حديث العهد في منصبه ولم يكن قد مرّ على حلفه يمين الاخلاص لجلالة السلطان لسوى بضعة أيام فقد رضي على الفور بالاشتراك في تنفيذ الخطة المقررة ووعد أن يقوم بما يتعلق به من واجباتها وفضلاً عن هذا وعد أن يحمل زملاءه الوزراء على الاشتراك في هذا الأمر كما أن شيخ الاسلام وعد بدوره اقناع بعض موظفي المابين وكلف مدحت باشا بمفاتحة كبار القواد العسكريين على سر القضية وحملهم على الاشتراك في تنفيذها .

الوزراء يخدعون السلطان

بقيت الأمور تجري طبق رغائب الاقطاب القائمين بهذه الحركة دون أن يحدث ما يعرقل مساعيهم الخفية وقد رأوا من قبيل الحيطة والحذر ان يتظاهروا بمجاملة السلطان ويلقوا في نفسه الاطمئنان حتى يلزم قصره مستريحاً دون أن يتركوا مجالاً لتسرب الشك إلى نفسه فعملوا على ايجاد جو هادئ خال من كل شيء غير عادي وتنفيذاً لمبادئ هذه الخطة تشرف بالمثول بين يدي جلالته الصدر الأعظم وشيخ الاسلام وعرضا عليه أن طلبة العلوم قد وضعوا كل ثقتهم بمدحت باشا الذي يتمتع بثقتهم فاذا حسن في عيني جلالته ليأمر في ادخاله عضواً في مجلس الوزراء لتتخلص الحكومة من معارض قوي وتستفيد في الوقت ذاته من تجاربه واختباراته وبينا له الفوائد المتوقفة على تحقيق هذا التعيين فلم يعارض السلطان في قبول هذا الاقتراح بل أصدر ارادته السنية في تلك المقابلة نفسها بتعيين مدحت باشا وزيراً للدولة

وفي اليوم الثاني لصدور هذه الارادة جاء مدحت باشا الى المابين وتشرف بالمثول بين يدي جلالة السلطان ليشكره

على تعيينه ثم تشرف من بعده وفد مؤلف من كبار العلماء وشكروا لجلالته تعيينه مدحت باشا وزيراً للدولة فسر السلطان وبدت عليه علائم الارتياح واظهر للوفد عطفه السامي ٠

السلطان يتودد الى وزرائه

فرح السلطان لوقوع الصلح بينه وبين مدحت باشا ولحصوله على وزراء جدد ولشدة ارتياحه أخذ يفرط في اظهار التودد نحو وزرائه متجاوزاً في بعض الاحيان حدود الاعتدال ٠ أما طلبة العلوم فظهروا بمظهر المطمئن الراضي ولم يعودوا يطالبون كالاول بمطالب متطرفة وإنما كانوا ينادون بلزوم اعداد مشروع قانون يخول الشعب حق مراقبة الوزراء بعض المراقبة وبضرورة تنازل السلطان عن قسم من ثروته الذاتية لسد العجز الحاصل في ميزانية الدولة وقد تشرفوا بالمثول بين يدي جلالته وعرضوا على اسماعه هذه المطالب فوعدهم أن يجيبهم في أقرب وقت

رغبته في معاقبة الطلاب

ولكن السلطان الذي توهم أن مركزه أصبح ثابتاً قرر أن يوقف هؤلاء الطلبة الشاغبين عند حدهم لئلا يتطاولوا عليه في المستقبل ويطالبوه بمثل هذه المطالب فدعا إليه الصدر الاعظم وشيخ الاسلام وفاتحهما بعزمه على اغلاق المدارس الدينية ونفي الطلبة إلى خارج الاستانة عند ورود أول خبر يشعر بانتصار جيوشه الشاهانية على البلغار الذين كانوا قد نشروا راية العصيان فسيرت الدولة حملة لتأديبهم ٠ وزاد على هذا أنه عازم على أن يبيد أثر هؤلاء الطلبة فيما إذا بدر منهم بادرة العصيان أو التمرد ضد جلالته فتظاهر الصدر وشيخ الاسلام بتصويب رأي الخليفة المعظم وقرروا معاً تعيين الوقت الملائم والطريقة المناسبة لتنفيذ هذه الفكرة ٠

برقيات مزورة

ويوم السبت انهالت على المابين عدة برقيات من السر دار عبد الكريم باشا الذي كان على رأس الحملة التأديبية في بلغاريا يبشر فيها جلالة المتبوع الاعظم بانتصارات جيوشه فبلغ السلطان الصدر الاعظم هذه البرقيات وذكره بان الوقت قد حان لتأديب طلبة العلوم وإراءتهم سطوة الحكومة ولو أدرك السلطان يومئذ أن هذه البرقيات مزورة أريد بها تضليله وأن مرسلها عبد الكريم باشا قد انضم إلى المتآمرين على خلعه لعمد بلا شك إلى اتخاذ وسائل غير هذه ولفكر في طرق غير هذه الطرق ولكن ٠٠٠



السر دار عبد الكريم باشا

استمالة السفراء

كان مدحت باشا وزملاؤه يعملون على استمالة سفيري انكلترا والنمسا إلى ما قر رأيهم عليه فوعدهم سفير انكلترا (السر أليوت) فوراً بكل مساعدة ممكنة في سبيل تنفيذ قضية الخلع أما السفير النمسوي (الكونت زنجي) فتلقى هذا الامر برزانة مقرونة بشيء من التأني وأجاب الوزراء أنه مضطر لاستطلاع رأي (الكونت اندراشي) في هذا الشأن وإنما يعدهم هو و(الكونت اندراشي) بكتمان الامر ٠

الاسراع في تنفيذ الخلع

وكانت الاندية والمقامات الرسمية في الاستانة تتحدث في تلك الايام بعزم السلطان على تهريب ثروته على ظهر إحدى البوارج الروسية وبما ان النية كانت معقودة على سد حاجات الجيش المعسكر في بلغاريا وتسديد الرواتب المتراكمة للجنود من أصل هذه الثروة خشي القائمون بالامر أن يتوفق السلطان



سفير انكلترا السر هنري أليوت

إلى انقاذ ثروته فقرروا الاسراع في تنحيته قبل ان يتمكن من تنفيذ فكرته ومن يدري ؟ أن هذه الشائعة لم تكن سوى دعاية من المتآمرين لتسميم افكار الرأي العام وحمله على الانضمام اليهم .

مراجعة السفير البريطاني

وفي يوم الاثنين عقد مدبرو الحركة اجتماعاً قرروا فيه تنفيذ الخلع في اليوم التالي الثلاثاء (في ٣٠ أيار سنة ١٨٧٦) و ٨ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ وأعلموا سفيري انكلترا والنمسا بقرب انقضاء عهد السلطان عبد العزيز ودفعاً لما كان يخشى وقوعه في المستقبل من الطوارئ ذهب أحد أقطاب الحركة إلى دار سفارة انكلترا وطلب إلى السفير ان يوعز إلى قائد الاسطول الانكليزي الراسي في ميناء (بشيكه) ليكون على استعداد لحماية القائمين بهذه الحركة إذا قدر لها الفشل واضطروا إلى الالتجاء اليه فاجابه السفير إلى طلبه وأعلم قائد الاسطول بالأمر وأوصاه أن يكون على استعداد حتى إذا ما تلقى اشارة بلزوم العمل يغادر حالا موقعه ويتجه إلى الاستانة ويرسي أمام قصر طوله باغجه وعرفه ايضاً أن قائد مضيق (جناق قلعه) قد تلقى التعليمات اللازمة بشأن السماح لقطع الاسطول باجتياز المضايق .

ثم عقد الوزراء وبقية الرجالات الذين اشتركوا في تدبير الحركة اجتماعاً نهائياً في قصر الصدر الاعظم ليبحثوا لآخر مرة في هذه القضية ويروا إذا كان هنالك نقص في تدابيرهم أم لا ؟

إننا نرى في مراجعة المتآمرين دار السفارة البريطانية وطلبهم اسطولها لحمايتهم نقيصة لاتغتفر ودعوة صريحة للاجنبي للتدخل في شؤون البلاد والتحكم في أمورها لقد اقترفوا الاخطاء نفسها التي كانوا يؤاخذون عليها السلطان ورجاله فلماذا اعتبروا اتصال محمود نديم باشا بالسفير الرومي خيانة وعبثاً بحقوق الوطن ولم يعدوا التجاءهم إلى السفير الانكليزي ليعينهم على خلع خليفتهم جريمة وطنية !

خطة التنفيذ

كان السر عسكر حسين عوني باشا قد أطلع سليمان باشا ناظر المدرسة الحربية في الاستانة وبطل (شيبقه) على سر الحركة المدبرة وعهد اليه بمحاصرة قصر (طولمه باغجه) براً وفاتح سليمان باشا بدوره



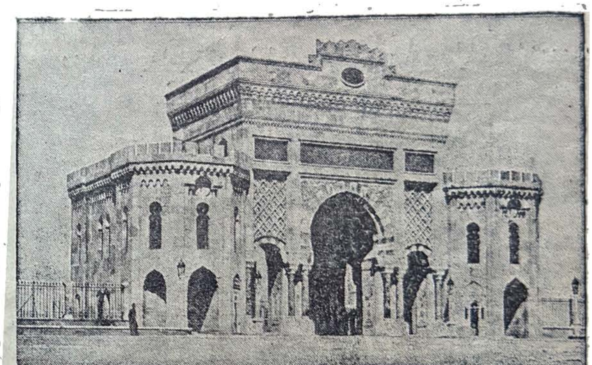
سليمان باشا ناظر المدرسة الحربية

كبار ضباط المدرسة — وكانوا من خيرة القواد — بالامر ليكونوا على بصيرة كما أنه طلب في الوقت ذاته إلى قواد الجيوش المرابطة في ثكنات (طاش قشله) و (كوش صويي قشله سي) أن ينبهوا الجنود ليكونوا على استعداد لاحتلال قصر طولمه باغجه فيما إذا هاجمته احدى القوات . وركزت المدافع في المدرسة الحربية في الجهة المطلة على القصر .

وأصدر وزير البحرية (قبودان دريا) أمره إلى القوات

البحرية بمحاصرة قصر (بشكطاش) من جهة البحر وفوض عارف باشا اميرال الاسطول باطلاق القنابل إذا حاول السراي أن يقاوم أو خرج منه طلق ناري .

اتخذت هذه التدابير كلها على أن يتم الخلع يوم الثلاثاء عند الظهر ولكن من غريب الصدف أن السلطان أوفد في ذلك المساء « الاثنين » من يدعوا إليه حسين عوني باشا السر عسكر فخاف الباشا خوفا شديداً وخامره الشك وخشى أن يكون أمر المؤامرة قد افتضح وشاع ، ولهذا امتنع عن الذهاب متنحلاً عذر المرض وأسرع إلى نظارة الحربية (دائرة سر عسكري) بعد أن ودع نساءه واولاده الوداع الأخير وانفذ رسولا في طلب الصدر الاعظم وشيخ الاسلام ومدحت باشا ورديف باشا وسليمان باشا ناظر المدرسة الحربية فتوافد هؤلاء



وزارة الحربية (باب سر عسكري)

وقد غادروا بيوتهم مودعين هم ايضا عيالهم الوداع الاخير فقد تفشل حركتهم فيساقون الى الموت المحتم ولما اكتمل عقدهم اطلعهم السر عسكر على ما حدث معه وأصر على انجاز الخلع في تلك الليلة نفسها فوافق المجتمعون على اقتراحه وعليه أصدر الاوامر الآتية :

أوامر السر عسكر

١ — يذهب سليمان باشا إلى المدرسة الحربية ورديف باشا الى ثكنات (كوش صولي قشله سي) و (طاش قشله) واحمد باشا الى الاسطول .



رديف باشا

٢ — يحتل طلاب المدرسة الحربية الطريق المؤدية إلى القصر من جهة (بشكطاش) .

٣ — تحتل الجنود المرابطة في الثكنات أطراف قصر طولمه باغجه .

٤ — ينزل الاسطول قسما من بحارته إلى القوارب لقطع المواصلات بين القصر والبحر .

٥ — يجرد افراد جنود المخافر المحيطة بالقصر من سلاحهم واذا بدرت منهم بادرة عصيان أو تمرد تقذف مدافع الاسطول والمدرسة الحربية قنابلها على القصر .

٦ — يفتح الجسر لمنع الجنود المرابطة في ضواحي الاستانة من المرور إذا اتصل بها الخبر .

٧ — يحاصر قصر درويش باشا فلا يسمح له بالخروج .

وبعد ان تلقى الباشاوات هذه الاوامر والتعليمات من السر عسكر انطلق كل واحد منهم إلى المقر المعين له لتنفيذ حصته من الواجب الملقى على عاتقه فأسرع سليمان باشا قبل الجميع واخرج طلاب المدرسة الحربية فاحتل شارع (بشكطاش) واما فصائل الجنود فاحتلت كما كان مقرراً أطراف (طولمه باغجة) وهي لاتعلم ماذا يراد منها و كانت تحت قيادة (رديف باشا) وحوصرت سواحل البحر بحسب التعليمات الصادرة إلى أميرال الاسطول التركي .

خطاب سليمان باشا

لما جاء سليمان باشا إلى المدرسة الحربية بعد منتصف الليل لايقاظ الطلاب واخراجهم للزحف على القصر جمع قبل كل شيء حوله كبار ضباط المدرسة وألقى عليهم بطلاقة لسانه الخطاب التاريخي الآتي :

أيها الرفاق !

إن الشعب والحكومة يطلبان منكم في هذه الليلة واجباً خطيراً مقدساً إذا استنكفتم عن اداء هذا الواجب المنتظر منكم فدولتنا ستنقرض وامتنا ستضمحل . لأن أعداءنا من الخارج قد أحاطوا بنا من كل صوب وجهة وردع هؤلاء باذن الله وبفضل غيرتكم من أسهل الامور علينا ولكن أعداءنا الداخليين ماذا نستطيع أن نفعل بهم ؟ سلطاننا سلم زمام أمورنا إلى الروس ألد أعداء دولتنا ، ايغناتيف السفير الرومي قد صار في الآستانة الفعّال المطلق لما يريد ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل بدأ هذا السفير يتداخل في امورنا حتى أصبح كما ترون يبعد كل يوم خيرة رجالنا وأحسن قوادنا عن العاصمة . واعلموا أن هذا الحال إذا دامت على هذا المنوال فدار الخلافة واقعة في أيدي الروس لا محالة وتلك هي غايتهم . كان لنا قديماً مقر للحكومة يدعى الباب العالي وأما اليوم فمقر حكومتنا انتقل إلى دار السفارة الروسية فالواجب يقضي علينا أن نكف يد السلطان الذي هو منشأ هذه السيئات وليس أمامنا سبيل نجاة آخر نسلكه . ان وطننا الذي أهين واحتقر وشعبنا الذي تدنى إلى أسفل دركات الذل قد عقدا كل آمالها عليكم ويطلبان نجدتكم وإغاثتكم « وهنا لم يستطع الخطيب ضبط نفسه فاغرورقت عيناه بالدموع » وتابع كلامه قائلا : وبدافع هذه الامور قرّ قرار العلماء والوزراء ورجال الدولة على خلع السلطان عبد العزيز وأنا الآن قادم إليكم من مجلسهم وقد القوا على عواتقنا أكبر قسط من هذه المهمة . وان البحارة من البحر وجنود الشكنات بقيادة رديف باشا من البر سيؤدون واجبهم ونحن سنزحف من هنا على القصر ، وما كاد يتم كلامه حتى هاجت خواطر الضباط وطغت عليهم موجة من الحماسة فنادوا بصوت واحد وهم واضعون أيديهم على قبضات سيوفهم إننا حاضرون للذهاب ولبذل أرواحنا في هذا السبيل إن أوجب الأمر .

وبعد برهة قصيرة أيقظت الابواق الطلاب من نومهم وساروا إلى المكان المعد لهم كما تقدم آنفاً

ذعر ولي العهد مراد أفندي

هل كان السلطان عبد العزيز نائماً أم مستيقظاً في تلك الساعة الأخيرة من أيام حكمه ؟ ذلك مالا نعلمه بالتمام، إنما نعلم أكيداً أن ولي العهد الامير مراد افندي كان في هذه الساعة غارقاً في نوم عميق دون أن يخطر على باله أنه سيتولى عرش أجداده في تلك الليلة لان الأخبار التي وصلته كانت تفيد بأن خلع عمه سيتم في ظهر الغد

كانت ليلة الثلاثاء التي تم فيها الخلع ليلة ليلاء ماطرة من الليالي الحالكة وكأن الطبيعة شعرت بما يجري في هدوء ذلك الليل وسكونه فأرادت أن تبكي شقاء عبد العزيز وتودعه بدموعها الغزيرة

سليمان باشا في قصر ولي العهد

وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل (فجر الثلاثاء) دخل سليمان باشا وبرفقته فريق من ضباطه إلى قصر الامير مراد أفندي بعد أن جندلوا حراس الأبواب وأيقظ الباشا الأمير من رقوده ليبلغه خبر ارتقائه عرش أجداده بإرادة الشعب وقد خاف ولي العهد خوفاً عظيماً لهذه المفاجأة غير المنتظره وحسب لها ألف حساب غير أن سليمان باشا هدأ روعه وسكن اضطرابه كما لاطف والدة الأمير التي كانت واقفة بجانب ولدها تبكي عليه .

السلطان مراد يغادر قصره

وكان حسين عوني باشا في انتظار ولي العهد أمام مدخل القصر فلما خرج السلطان الجديد برفقة سليمان باشا استقبله السر عسكر وأخذه إلى المركبة التي كانت في انتظارهما ثم سارت بهما إلى ساحل طوله باغجة ومن هناك ركبا القارب وتبعهما بعض أفراد الحاشية وسار الجميع إلى ميناء سركه‌جي ومن الميناء انتقلوا إلى مركبة ملكية أقلتهم إلى وزارة الحربية — دائرة السر عسكرية — حيث كان جميع وزراء الدولة في انتظار تشريف جلالته وما أن أطل الموكب حتى

هرعوا لاستقبال السلطان وذهبوا به تواً إلى القاعة الخاصة بالسلاطين في تلك الدائرة .

وهناك بحضور شيخ الإسلام ونقيب الأشراف وشريف مكة ومدحت باشا وجميع الوزراء ورجال الدولة والعلماء والقواد قرئت فتوى خلع السلطان عبد العزيز ونودي بالامير مراد خليفة له وهاك صورة هذه الفتوى :

فتوى خلع السلطان عبد العزيز

« اذا كان امير المؤمنين زيد مختل الشعور ، وقليل »
« الاختبار بالشؤون السياسية ينفق الاموال »
« الاميرية في سبيل شؤونه الذاتية بصورة ليس في »
« مقدور الشعب والبلاد احتمالها ويشوش الامور »
« الدينية والزمنية ، مخرباً البلاد والعباد ، فهل »
« يصح خلعه اذا كان بقاؤه مضرا بالملك والشعب ؟ »

الجواب : — يصح

كتبه الفقير
حسن خير الله
عفي عنه

مدافع الجلوس

بعد أن هنأ الحضور السلطان الجديد اطلقت المدافع مائة طلقة وطلقة فاطلعت سكان الآستانة الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر منذ ثلاثة أيام نتائج الموقف على ما تم وبينما كانت المدافع تصب قنابلها في الفضاء ايذاناً بزوال العهد العزيزي وبدء العهد المرادي كان المنادون ينادون في الشوارع معلنين للناس حادثتي الخلع والجلوس كان الشعب على اختلاف طبقاته يعلن ابتهاجه بهذا الانقلاب لاعتقاده ان الاصلاح قد بدأ وان آمال المصلحين لابد أن تتحقق قريباً .

تأثير خلع عبد العزيز في قيصر روسيا

سقط السلطان عبد العزيز خان عن صهوة مجده في ليلة وضحاها وكان سقوطه عظيما ولم يأسف أحد على انفصاله عن العرش في ذلك الوقت وقد شاركت الدول الاوربية الشعب العثماني في شعوره ماعدا قيصر روسيا (اسكندر الثاني) فقد كان يومئذ في مدينة (ايمس) ولما تناول برقية الجنرال ايغناتيف التي بها يخبره عن حادثة الخلع اضطرب وظل صامتاً مبهوتاً نحو عشر دقائق لا يستطيع الكلام ولشدة تأثره سقط فنجان الشاي من يده .

ايغناتيف يهدد

وأيغناتيف نفسه صعق لهذا الخبر لما أعلنته مدافع الجلوس وكان في ليلة الخلع يلعب بالورق مع الكونت (زيجني) والمسيو (دووس) سفيري النمسا واليونان ويروي انه كان منشرحاً للغاية في تلك الليلة غير عالم بما سيحدث في فجر الغد ولم يشأ تصديق الحادث في بادئ الأمر ولكن لما جاءه سعد الله بك الموفد من قبل الباب العالي لتبليغ السفراء جلوس السلطان مراد غضب وصاح وهدد وصرح أن حكومة روسيا لا ترضى بمثل هذا الخلع ورفض تزيين السفن الروسية التابعة للسفارة بالأعلام وأصر على رفضه بينما بقية السفراء بعد مخابرة حكوماتهم رفعوا الأعلام على دور السفارات والسفن معاً .

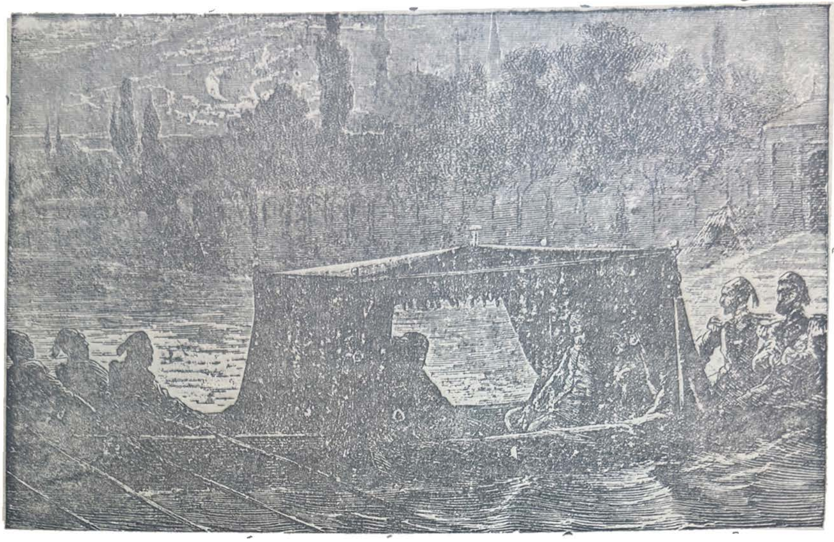
السلطان عبد العزيز لا يريد مغادرة القصر

انصرف الوزراء بعد مبايعة السلطان لاتخاذ التدابير لابلاغ عبد العزيز خبر خلعه واخراجه من قصر (طولمه باغجه) ليحل فيه السلطان الجديد لأن اجتماع السلف والخلف في مقر واحد لم يكن جائزاً كما ان اخراج عبد العزيز لم يكن هيناً فانتدبوا لهذه المهمة الخطيرة رديف باشا مستشار وزارة الحربية

ويروى أن عبد العزيز لما سمع مدافع الجلوس تقصف استيقظ منزعجاً وجمد في مكانه مدة ثم أخذ يسير ذهابا وإيابا في ردهات القصر ساكتاً مدهوشاً وحاول رجال حاشيته تسليته وتعزيته فلم يلتفت إلى كلامهم ولوحظ أنه كان يسير متجهاً نحو نوافذ القصر المطلة على البحر ويأتي بحركات تدل على أنه يريد القاء نفسه في البحر فاحتاط الحاضرون لهذا الأمر ووقفوا على مقربة من النوافذ ليحولوا دون تنفيذ فكرته .

رديف باشا في طولمه باغجه

كان الفجر قد بدأ ينبثق لما وصل رديف باشا إلى طولمه باغجه حاملا ارادة حاسمة بوجوب اخراج عبد العزيز فدعا



عبد العزيز ينقله الجنود على زورق مخفوراً إلى سراي طوب قبو مقر سجنه

اليه جوهر آغا رئيس الخصيان (دار السعادة آغاسي) وطلب اليه أن يبلغ عبد العزيز نبأ خلعه وارادة السلطان الجديد القاضية بنقله الى سراي (طوبقبو) وعبثاً حاول عبد العزيز التخلص من القدر المحتوم فقد افهمه رديف باشا انه مكلف بتنفيذ الاوامر التي لديه بالقوة وكانت والدة عبد العزيز واقفة بجانب ولدها فخرجت إلى الغرفة التي كان فيها رديف باشا وانهالت عليه بقوارص الكلام فأجابها بمنتهى اللطف أنه موظف مكلف بتنفيذ الامر .

وأخيراً لما شعر عبد العزيز بانه لا مناص من الاذعان اعلن رضوخه للارادة الصادرة من ابن اخيه ! بعد أن أطل من النافذة ورأى بأم عينه جنوده يحاصرون قصره من البر والبحر وقطع كل أمل من وصول نجدة إليه فتقلد سيفه وطلب معطفه ونادى نجليه يوسف عز الدين ومحمود جلال الدين لمرافقته وغادر القصر راكباً الزورق المعد لنقله إلى قصر طوبقبو وتبعته زوارق أخرى تحمل والدته وبعض نسائه وجواريه وخدمه وقد غادرت والدته القصر وهي تبكي عرشا أضاعه ولدها وتلعن رديف باشا وزملاءه .

وما كاد عبد العزيز يغادر طولمه باغجه حتى تحرك موكب السلطان مراد من وزارة الحربية مخترقا شوارع الاستانة التي كانت مزدحمة بجموع غفيرة من الاهلين تهتف لجلالته منادية (بادشاهم چوق يشا) .

عبد العزيز يتشاءم من قصر طوبقبو

بقي عبد العزيز قلقا في قصر طوبقبو ذلك المكان المفزع الذي قضى فيه عمه (سليم الثالث) شهيداً لا يرتاح لسكناه خائفا على حياته ولهذا بعث بالكتاب الآتي إلى السلطان مراد يلتمس فيه نقله إلى مكان آخر :

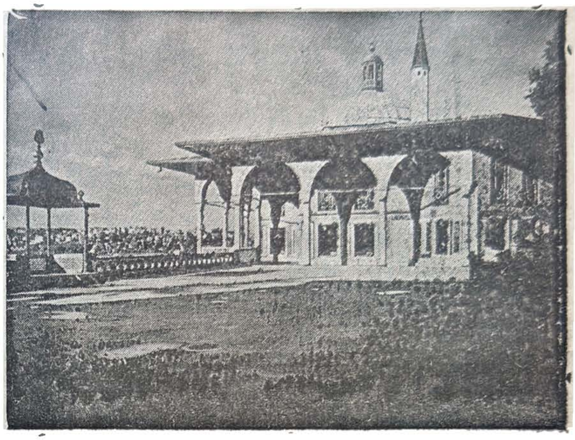
صورة الكتاب

« إنني ألجأ أولاً إلى الله تعالى ومن ثم إلى أعتاب »
« جلالتكم مهنئاً جلوسكم على العرش . لقد عملت »
« كثيراً على اسعاد امتي فلم افلح ولهذا فأنا آسف »
« جداً وترونني متمنياً لكم النجاح في خدمة الوطن »
« وأرجو ألا تنسوا بأنني قد هيأت لجلالتكم جميع »
« الوسائل التي من شأنها أن تعلي الوطن وتضمن »
« مستقبل البلاد . لافتاً نظركم إلى أمر خطير وهو »
« أن الجنود الذين سلحتهم بيداي هم الذين زجوني في »
« هذا المكان وأوصلوني إلى هذه الحال . وأتوسل »
« إليكم في الختام أن تنقذوني من هذا المكان الضيق »
« وتأمروا بنقلي إلى محل آخر متنازلاً عن العرش »
« العثماني إلى أبناء عبد المجيد خان »

« عبد العزيز »

وكان هذا الكتاب كما روى بعض الذين شاهدوه مكتوباً بخط يد عبد العزيز نفسه بالحبر الاحمر ٠

ويقال ان عبد العزيز بعث إلى ابن أخيه السلطان بكتاب آخر يطلب فيه منه أن يرسل إليه عشرين ألف ليرة عثمانية كانت مخبأة في احدى مخادع القصر



قصر طوبقبو

وقد كتب السلطان مراد جواباً لطيفا وأمر بنقله إلى قصر جراغان الذي كان هو محبوسا فيه بالامس غير أن حسين عوني باشا أخر تنفيذ الارادة الصادرة بنقل عبد العزيز ثلاثة أيام ريثما تتخذ بعض الاحتياطات اللازمة ٠

نقل عبد العزيز الى جراغان

وفي اليوم الرابع لخلعه « الجمعة » نقل باكراً إلى قصر جراغان ولكن السلطان الخليع لم يعش في هذا القصر سوى يومين فقط ! فقد أثر في نفسه خلعه تأثيراً عميقا واستكبر ما عومل به على أثر ضياع عرشه وهو الجبار العظيم فعمد الى الانتحار كما سيأتي بيانه

حياة عبد العزيز في جراغان

وصف الكونت دي كيراتري في مؤلفه الموسوم « بتاريخ السلطان مراد الخامس » (١) الحياة الشقية التي قضاها السلطان السابق في قصر جراغان كما يأتي :

كان السلطان قد منع من التجول خارج قصره الذي كان محاطاً بثلاثة صفوف من الجنود ولكنه لم يكترث لهذا المنع بل أخذ يتجول كما يريد في فناء القصر وحدائقه المطلة على المضيق وقد صبر الحارس المكلف بحراسته كثيراً على هذه المخالفة الصريحة فتقدم من السلطان ورجاه بمنتهي اللطف أن يدخل إلى القصر فغضب لهذا التنبيه ودار بينه وبين الحارس هذا الحديث :

السلطان — ألا تعلم من أنا أيها النذل ؟

الحارس — أعلم يامولاي انت السيد عبد العزيز ٠ ٠ ٠

وعلى أثر هذا الحديث أخبر الحارس قائده بالامر فتقدم القائد إلى السلطان وكان برتبة (ميرالاي) وقال له ان نسمات المساء مضرة بصحة جلالته فالانسب ان يتفضل بالعودة إلى مقره فأجابه السلطان أتعترضون علي ثانية ولم يكد يتم كلامه حتى أخرج من جيبه مسدسا صغير الحجم وأطلق النار على القائد ولحسن الحظ أن القائد كان في تلك اللحظة قد أحنى رأسه قليلاً لتأدية التحية العسكرية فتخطاه الرصاص ولم يصب بأذى وعندئذ استقدم القائد مفرزة من الجند احتلت الفناء ولما رأى عبد العزيز مفرزة الجند انسحب إلى دائرته وهو على أشد مايكون من الغضب ٠ ولم يذق جفنه لذة الكرى في تلك الليلة حتى الصباح بل كان تارة يخرج الى الفناء المجاور للبحر وطوراً إلى جنائن القصر وبقيت فصيلة الجند محتلة مواقعها

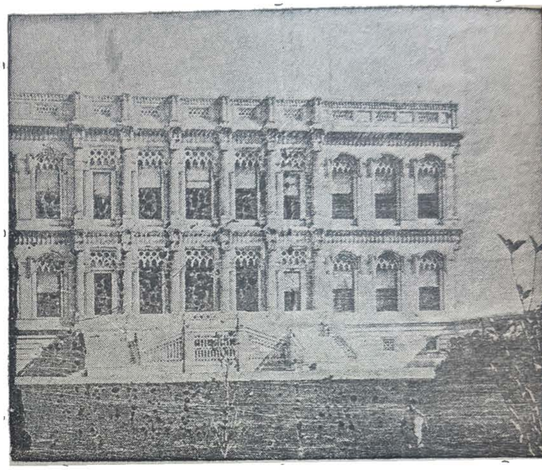
قضى السلطان البائس ليلته تلك على اسوأ مايكون فاعتراه اضطراب شديد وسمعه البعض يحدث نفسه ويقول : ألم يبق أحد بدافع عني ٠٠٠ أين ذهب أولئك الذين غمرتهم بهباتي وصلاتي ٠ وانتم يا أولادي ألم أسند قيادة الجيش إلى أولكم وقيادة الاسطول إلى ثانيكم فأين فيالقكم ومدرعاتكم لماذا لاتطلق هذه السفن الجميلة الراسية امامي قنابلها على أعدائي فتطير اشلائهم في الهواء ٠ واستمر على هذه الحال حتى انبثاق الفجر وهو في اقصى حالات الغضب وانقلب هذا الغضب قبيل الفجر إلى انحطاط وخور فكان يطيل التأمل والتفكير تارة وطوراً يتلفظ بكلمات متقطعة شبيهة بالهذيان وسمع يصدر أوامره بلهجة المسيطر الآمر للاسطول ويسب حسين عوني باشا وأحيانا كان يهدأ فينتصب في قعدته كأنه في سابق عزه وسطوته فيأمر باسقاط وزرائه واستجوابهم كأنهم مائلون أمامه ٠٠٠ !

---

(1) Mourad V, Cont. E, de Keratry

الحكومة تجرد عبد العزيز من مسدسه

ولما انقضت هذه الليلة المضطربة وأصبح صباح « السبت » جاء من قصر طولمه باغجة أحد الياوران وطلب منه المسدس الموجود لديه وكان السلطان قد صحي من اضطرابه وهدأت أعصابه الثائرة فدار بينه وبين الياور الحديث الآتي :



سراي جراغان الذي انتحر فيه السلطان عبد العزيز

السلطان — (بلهجة المزدري) لماذا يريد مني ابن اخي المحبوب مسدسي ولماذا يحتاجه ياترى ؟ ..

الياور — لئلا تجرحوا انفسكم به قضاء .

السلطان — أحسنا المسدس في منطقتي تقدم وانتزعه !

الياور — كلا يامولاي ليس في استطاعة أحد أن يضع يده على شخص جلالتكم الكريم إنما التمس منكم أن تتفضلوا بتسليمي المسدس بيدكم .

ورضي السلطان بعد هذا الحديث بتسليم مسدسه فاخرجه من منطقته وسلمه للياور وقد لاحظت والدته وبعض نسائه اضطرابه الزائد في ذلك اليوم فلم يفارقنه لحظة بل بذلن جهدهن في سبيل تهدئة افكاره وقد افادت جهودهن الصادرة عن حنو الأم وعطف الزوجات بعض الفائدة ولكن اضطرابه عاد فتجدد لما أمسى المساء ولم يستطع الرقود في تلك الليلة أيضاً فقضى طول الليل بالارق والقلق وزاد اضطرابه زيادة حملته على انتهار والدته وبقي يسير ذهابا وإيابا حتى الصباح في بهو القصر المطل على البحر .

ولما انبثقت خيوط الصباح كان أعياه التعب فارتمى على مقعد كبير ليأخذ نصيبه من الراحة واستغرق في نوم عميق دام بضع ساعات ولما استيقظ دعا نديمه الاول وطلب اليه أن يتلو عليه الصحف التركية الصادرة في ذلك الصباح وظهر في أثناء قراءة الصحف التي دامت نحو نصف ساعة بمظهر المتلهي بها وظهرت عليه علائم الارتياح مما دل على استراحة أفكاره وخاطب إذ ذاك أحب أمناء البلاط اليه فخري بك بمنتهى الهدوء وطلب اليه أن يأتيه بمقص ومرآة صغيرة ليهذب لحيته فذهب فخري بك إلى والدة السلطان وأعلمها بطلب ابنها فاعطته ماأراد دون أن يخامرها الشك .

عبد العزيز ينحر نفسه

كان هذا المقراض الذي أصبح من تلك الدقيقة ذا قيمة تاريخية بطول عشرة سنتيمترات محدد الرأسين فبعد أن تناوله مع المرآة من فخري بك قال لمن حوله (اذهبوا عني) وانتحى احدى نواحي الغرفة وانكب على تهذيب لحيته كجاري عادته وقد دفع حب الاستطلاع بعض سكان القصر لمراقبة جلالته ولما تطلعوا من ثقوب مفتاح غرفته وجدوه منهمكا في ترتيب شعرات لحيته بالمقص فلم يبق عندهم أقل ريب وانسحبوا الى أماكنهم .

وقوع الفاجعة

إلى هنا تنتهي الاخبار الصحيحة التي اتصلت بنا عن فاجعة السلطان عبد العزيز أما ما يروى عما حدث بعد اختلائه في الغرفة فكله عبارة عن حدس وظن وتخمين .

لقد جلس السلطان السابق بعد أن استلم المقص والمرآة على أريكة كانت بجانب النافذة المطلة على البحر فقطع بيده اليسرى في بادئ الامر بالمقص الذي بيده عروق ذراعه الأيمن ثم حاول قطع عروق ذراعه الأيسر بالطريقة نفسها فنقل المقص إلى اليد اليمنى وبما أن هذه اليد كانت قد خارت قواها لم ينجح في محاولته الثانية نجاحه في الأولى فقطع الاوردة

أخذنا هذه الصورة الفريدة النادرة من مجموعة صالح فؤاد بك حفيد الصدر الاعظم فؤاد باشا



السلطان عبد العزيز يستعرض في أيام مجده عساكره الشاهانية معجبا فخوراً

فقط دون أن يتمكن من قطع الشرايين فنزف الدم منه مدة لا تقل عن العشرين دقيقة على مايرجح فاضاع كمية كبيرة جداً من الدم في خلال النزيف إلى أن وهنت قواه فانقلب من على الأريكة إلى الأرض واحدث انقلاب جسمه دويا سمعه سكان القصر الذين كانوا في الطابق السفلي فتراكضوا صاعدين على الدرج نحو مصدر صوت السقوط متجهين إلى غرفة مولاهم وتعالى الصراخ والعويل من غرفة الحريم فهرولت والدته إلى غرفة ابنها فشاهدت الدم يسيل من شق الباب الموصد من الداخل ولما كسر المجتمعون الباب ودخلوا إلى الغرفة شاهدوا السلطان عبد العزيز مجندلا على الارض يتخبط بدمائه وكان فيه رمق من الحياة فتمكن من القول لأمه : انا الذي قتلت نفسي ! وماعتم أن اسلم الروح وفارق هذه الحياة بعد بضع دقائق .

وكان الطبيبان الدكتور ميلتيادي بك والدكتور قره طودوري بك في ذلك الوقت موجودين في دائرة الحريم فاسرعا إلى محل الحادث فشاهدا السلطان قد فارق الحياة وما كادا يعلنان وفاته حتى تعالت أصوات البكاء والنحيب من جميع جهات القصر فسمعت أصوات العويل في قصر طولمه باغجه حيث كان (حسين عوني باشا) الذي أسرع بالحضور لاجراء التحقيق فأمر فور وصوله بانزال جثمان السلطان من الطابق العلوي إلى الطابق السفلي دون أن يعتريه ارتباك أو اضطراب ولكنه اقترف إهانة كبرى بوضعه جثمان السلطان الشهيد على الأرض الجرداء ! وشرع في إجراء التحقيق حالا دون أن يضيع وقتا فاستجوب سكان القصر باجمعهم ثم اوفد من جمع سبعة عشر طبيباً من أشهر أطباء الاستانة البارزين وبينهم (مارفو باشا) طبيب السلطان عبد العزيز الخاص وأطباء سفارتي انكلترا واميركا وقد وضع هؤلاء الاطباء بعد وقوع الكارثة بساعتين تقريراً طبياً مشتركا اتفقوا فيه على النقاط الآتية :

١ — إن وفاة السلطان السابق عبد العزيز تسببت عن نزيف الدم الحاصل من قطع أوردة الساعد .

٢ — ان الآلة التي أرونا إياها تحدث هذه الجروح بعينها .

٣ — يستدل من نوع الجروح ومن استقامتها ومن الآلة التي سببتها على أنه مات منتحراً .

وقد وقع هذا التقرير الطبي تسعة عشر طبيباً بينهم اثنان من أطباء البلاط وهم :

مارفو ، نوري ، صونو ، اسبانيول ، مارق ماركل ، باترويلو عبد النور ، ثروت ، دهقاسترو ، ماروتن ، جول مليخن ، قسطنطين قره طو دوري ، دبكسون ، ويتاليس ، ادوار اسباداو ، نوريجان ، مليان بك ، مصطفى ، محمد .

ومع ان هذا التقرير الفني قد اثبت أن السلطان عبد العزيز مات منتحراً في حين لا يوجد أدلة أو براهين أخرى تؤيد عكس

هذا القول فقد أبى أخيراً رجال الصحافة والمؤلفون لاسيما الغربيون منهم تصديق خبر انتحاره فذهبوا أولا إلى أن المغفور له السلطان عبد العزيز قتل غدراً بتدبير (حسين عوني باشا) وزميله (رديف باشا) وزعموا بعد ذلك أن مدحت باشا هو الذي اغتاله على أن التاريخ سيدون بلا شك هذه الكارثة كارثة انتحار إلى أن يؤيد القائلون بقتله حقيقة ادعائهم بالأدلة والشهود

ولما كانت هذه القضية قد أثيرت ثانية بعد ارتقاء عبد الحميد العرش في أثناء محاكمة (مدحت باشا) ووفاته فسنعود اليها في مكانها من هذه الفصول موردين حجج المدعين بقتله وبراهين القائلين بانتحاره مع تبسط عام في دقائق وتفاصيل هذه الفاجعة المروعة .

ولا نريد ان نختم هذا الفصل دون أن نشير إلى الاغاني التي وضعها أهل الاستانة واخذوا ينشدونها بالحان حزينة رائين فيها عبد العزيز لما بلغهم خبر موته فقد انقلبت نقمتهم عليه إلى عطف وحنان وبدأوا يحملون على الوزراء الذين خلعوه ويكيلون لهم شتى التهم .

واشهر تلك الاغاني هي التي نظمها كمال باشا فنشرتها الجرائد التركية ومطلعها :

دين ودولت خائني برقاج ملاعين يزيد
ايلمشلر حضرت عبد العزيز خان شهيد

وقد عرب منها المرحوم أديب اسحق الادوار الآتية متبعاً في التعريب وزنها الاصلي محفوظة الالفاظ والقوافي على قدر الامكان فقال :

المذهب

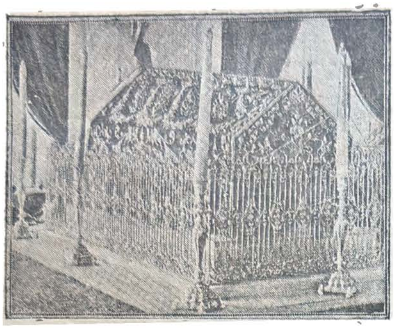
خانة للدين والدولة من قوم يزيد
قتلوا عبد العزيز المرتضي فهو شهيد

دور

جدّدت فينا بنار من اوار كربلا
وبدا للناس أمر منهم حيّرنا
لاقَ فيه انّ عينيّ تسكب الدمع دما
لعنة الله على من ذلك الجرم جنى

المذهب

خانة للدين والدولة من قوم يزيد
قتلوا عبد العزيز المرتضي فهو شهيد



ضريح المغفور له السلطان عبد العزيز

دور

بعض أهل الغرض الفاسد مراً مكروا
جعلوا السلطان بين الشهدا واستتروا
واذاعوا بعد هذا أنه منتحر
لم يخافوا الله في بهتانهم لم يحذروا

المذهب

خانة للدين والدولة من قوم يزيد
قتلوا عبد العزيز المرتضي فهو شهيد

دور

اسف الدنيا على المظلوم سلطان الاوان
الامير العدل ذي القرنين في هذا الزمان
اسفا لم ينج ممن كان بالايمان مان
فغدا عنه شهيداً أين مثواه الجنان

المذهب

خانة للدين والدولة من قوم يزيد
قتلوا عبد العزيز المرتضي فهو شهيد

أما الذين اعتقدوا أنه مات منتحراً فقد أنشأوا أغنية عن لسان عبد العزيز مطلعها :

محنتي دنيا جكلمز طوغريسي برجان ايجون

أي :

ان محن الدنيا لا يجب ان يتحملها الانسان من أجل الحرص على النفس .

فرغنا في الفصل الذي تقدم من إيضاح فاجعة خلع السلطان عبد العزيز وانتحاره وهي الحلقة الأولى التي أردنا أن نصل بها موضوعنا بقي علينا الآن قبل الشروع في وصف العصر الحميدي أن نورد لمحة عن عهد السلطان مراد الخامس ساردين تفاصيل نشأته وارتقائه العرش ومرضه وكيفية تنحيته واهم وقائع أيامه المحدودة



السلطان مراد خان الخامس

كلمة عامة عن السلطان مراد

السلطان مراد الخامس الذي يعد من اتعس الملوك حظا واشقاهم أياما هو السلطان الثالث والثلاثون من سلاطين بني عثمان وأكبر أنجال ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان ، ولد في ٢٥ رجب ١٢٥٦ ﻫ (٢١ ايلول ١٨٤٠ م) وتبوأ العرش على أثر تنحية عمه السلطان عبد العزيز وبعد أن حكم البلاد ٩٣ يوما فقط نحي هو الآخر عن العرش بسبب الاختلال الذي طرأ على عقله وبقي سجينا في قبضة أخيه السلطان عبد الحميد مدة ثماني وعشرين سنة في قصر جراغان إلى أن وافاه الاجل المحتوم يوم الاثنين الواقع في ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٢٢ ﻫ (٢٩ آب ١٩٠٤ م)

حالة البلاد في أوائل حكمه

تقدم معنا القول في الفصل الاول ان السلطان عبد العزيز خان خلع بعد منتصف ليلة الاثنين الواقع في ٧ جمادى الاولى ١٢٩٣ ﻫ (٣٠ ايار ١٨٧٦ م) وبويع بالخلافة بعده ابن أخيه السلطان مراد خان الخامس موضوع بحثنا في هذا الفصل وقد كانت البلاد العثمانية يومئذ في ارتباك عظيم تجتاز أزمة خطيرة جداً لان سياسة عبد العزيز الخرقاء كانت قد أوصلت البلاد إلى حافة الانقراض . فكانت خزينة الدولة قد افلست من جراء تبذيره واسرافه فارتفعت الديون العامة في خلال عشر سنوات الى اربعة مليارات من الفرنكات بعد ان كانت ٣٧٥ مليونا فقط وهذه المليارات أنفق السلطان معظمها على خصوصياته فوهنت مالية الدولة ثم اعترتها أزمة مالية خطيرة أفضت إلى إعلان افلاسها وأدت بالتالي إلى افلاس السلطان عبد العزيز وافلاس حكومته نفسها إفلاساً سياسيا وماليا معاً الامر الذي حمل السلطان على تسديد ديونه بحياته !

نشأة السلطان مراد وحداثته

انتعشت آمال المصلحين ونشطت مساعيهم لما تبوأ العرش السلطان مراد الذي كان معروفا منذ صغره بحسن نواياه للجميع وعدله وحبه للمعارف ونفوره الشديد من الاستبداد وكان والده قد انتدب لتعليمه وتربيته فريقا من كبار الاساتذة المشهورين فقرأ ولده اللغة الفرنسية على ادهم باشا الذي تولى الصدارة العظمى فيما بعد ، حتى اتقن قراءتها وكتابتها مع التكلم فيها بشيء من الصعوبة وبرع في اللغة التركية قراءة وكتابة منذ اوائل نشأته ؛ واظهر نبوغا باكراً في الكتابة التركية وهو حدث بعد — وكان الاستاذ الشهير عمر أفندي الملقب عند الاتراك بكردان قهران من جملة أساتذته — وبفضل الاساليب المفيدة التي سار عليها هذا الاستاذ القدير في تثقيف تلميذه ملك الامير الفتى ناصية اللغة التركية بجميع فروعها في خلال مدة قصيرة حتى فاق فيها استاذه نفسه ونشأ فضلا

عن نبوغه هذا في اللغات مطبوعا على الشعر ميالا إلى الموسيقى وهذا ما حدا به إلى الاستسلام للتأمل في كثير من الاحايين تائهًا في عالم الخيال كما سيأتي بيانه .

ولما آنس والده فيه ميلا إلى الموسيقى دفعه إلى تعلم اصول هذا الفن على أستاذين ايطاليين يدعيان (غواتلي باشا ولومباردي بك) وكان كلاهما بارعا في هذا الفن على جانب عظيم من المقدرة فنبغ الامير في الموسيقى ايضا نبوغا عجيبا بفضل الدروس التي تلقاها عن هذين الاستاذين اضف إلى ذلك استعداده الفطري للفنون الجميلة فأصبح موسيقيا بارعا ويقال ان لدى (غواتلي باشا) الآنف الذكر الذي بقي حيًا إلى عهد قريب مجموعة كبيرة من المقاطيع الموسيقية من تلحين الامير مراد الذي كان يتلهى في أوقات فراغه بعزفها وعزف غيرها من المقاطيع ليدفع عنه الملل الذي كان يرافق عادة حياة القصور ومن غريب ما يروى عن هذا الامير النابه التعس انه كان يصاب بذهول وكآبة يستسلم فيها ساعات من الزمن الى الحزن والتفكير غارقا في بحر من الخيالات وذلك حال لمسه (البيانو) وشروعه في العزف حتى ولو كان في اسعد وابهج اوبقات انسه وسروره وهذا مما يدل بلا شك على أن الداء الذي اشتد عليه أخيراً فانقلب إلى جنون كان قد بدأ فيه من ذلك العهد .

ولع الامير بفن البناء

ولما بلغ دور الشباب اولع بصناعة البناء فضلا عن ولعه الشديد بفن الموسيقى ومما يؤثر عنه قوله لأحد أصحابه : « إنني لو لم أكن من أفراد أسرة بني عثمان لفضلت ان اكون بنّاء » وقد انفق كامل ثروته في سبيل هذا الولع فكان يهدم على الدوام قصره الكائن في « قوربغه لي دره » ويشيده ثانية وبقي على هذا الحال مدة طويلة لا يفكر إلا في الهدم والبناء ! واستمر في ولعه هذا حتى في نفس الاوقات العصيبة التي أوشك ان ينقضي فيها عهد السلطان عبد العزيز ويؤول العرش اليه وعبثا حاول اذ ذاك ندماؤه وأصحابه ايقافه على خطورة الموقف الذي انتهت اليه البلاد فبدلا من أن يفكر وارث العرش وسلطان الغد بمصير البلاد والشعب وبالطرق الواجب سلوكها لعمران بناء الوطن الموشك على الانهيار ، بقي منهمكا حتى في أثناء هذه الظروف الدقيقة في مسائل تعمير القصور وهدمها !

وقد شبه أحد مؤرخي الالمان السلطان مراد من هذه الناحية بلودويك الثاني ملك بافاريا فكلاهما خسرا عرشيهما انما لودويك قضى على نفسه بنفسه بدافع جنونه بينما السلطان مراد الخامس عاش بعد خلعه ثماني وعشرين سنة قضاها باحتمال جميع انواع الالام والعذاب .

تغير السلطان عبد العزيز على أبناء أخيه

كان السلطان مراد الخامس وبقية اخوته الامراء في حياة والدهم السلطان عبد المجيد في رفاه وسعادة ودلال ولكن على اثر موته واستلام عمهم السلطان عبد العزيز زمام العرش انقلبت فجأة تلك الحياة السعيدة التي كانوا يقضونها في ظل ابيهم إلى عكسها لريبة عمهم فيهم وتخوفه منهم فقد صور الوهم للسلطان عبد العزيز أن ابن اخيه مراد افندي ولي العهد يعمل على انتزاع العرش منه والحلول محله قبل مجيء اوانه وليس ادل على الخوف العظيم الذي شعر به انجال السلطان عبد المجيد حين بلغتهم وفاة والدهم وارتقاء عمهم العرش من محاولة أحدهم رشاد افندي — السلطان محمد خان الخامس فيما بعد — القاء نفسه في البحر وان المطلع على حوادث القتل التي كان يقوم بها السلاطين سابقًا لدى استلامهم الحكم يعذر بلا شك هؤلاء الأمراء في الخوف الشديد الذي اعتراهم .

لم يقتل السلطان عبد العزيز أبناء أخيه كما فعل أسلافه الغابرون بل عمد إلى اعتقالهم في قصر (طوله باغجة) انما شدد المراقبة على أكبرهم الامير مراد افندي الشديد الخطر في نظره لكونه وريث العرش وولي العهد ! فامر بنقله إلى مزرعته الكائنة في (قوربغه لي دره) وقطع علائقه مع الاستانة .

غير أن السلطان عبد العزيز الذي أراد أن يدرأ عن نفسه خطر أنجال أخيه باستصحاب اثنين منهم معه الى اوربا لم يدر في خلده أن وجود أحدهما الامير مراد افندي ولي العهد صاحب الملامح الجذابة والمظاهر الخلابة في عداد حاشيته سيحول أنظار عظماء أوربا عن

جلالته أو يعكر له صفو سياحته . فقد كان هذا الامير إذ ذاك في زهرة شبابه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره جميل الطلعة وسيم المحيا فاتجهت اليه الانظار حيثما حل وسار سيده جلالة الخاقان وتلطف كل من الامبراطور نابليون الثالث والملك غليوم والملكة فكتوريا وأبدوا نحوه من ضروب الحفاوة والالتفات والتكريم ما أثار حنق السلطان عبد العزيز فكظم غيظه حتى انتهى سياحته وعاد إلى الاستانة وهناك ضاعف التضييق على ولي عهده وشدد في أمر مراقبته ومنعه من الخروج مشياً على الاقدام وانما سمح له أن يتنزه من حين إلى آخر في مركبة مغلقة لا يراه فيها الناس بشرط أن يستحصل إذنا لكل مرة يود الخروج فيها ثم عمد إلى تخفيض مخصصاته فاضطر الامير أن يلتجئ إلى المرابين .

اتصال الامير بمحام افرنسي

وفضلا عن هذا فقد أحاط السلطان الامير بجيش من الجواسيس ورجال الشرطة السريين ولهذا كان خلانه الاوفياء الذين يبغون مقابلته يتكبدون اعظم المشقات للوصول إليه والاجتماع به بعد أن يتخذوا كل الاحتياطات والتدابير التي من شأنها أن تقيهم شر العيون المترصدة وبواسطة هذه التدابير تمكن الامير من الاتصال بمحام افرنسي كان قاطنا في حي (بك اوغلي) فتوثقت بينه وبين المحامي الصلات والعلائق رغم تلك المراقبة الشديدة الموضوعة عليه وقد طلب في احد الايام إلى هذا المحامي أن يضع له هيكل دستور بعد أن هيأ بنفسه لائحة ضمنها مواد الدستور العامة معترفا أن مقدرته العلمية ليست على درجة تمكنه من افراغ اللائحة في قالب دستور متوفر الشروط .

رأي ولي العهد في كيفية الاصلاح

كان ولي العهد كما سبق القول ذا نوايا حسنة للغاية عادلا يفكر دوما في سعادة الشعب وحريته غير أنه لم يكن في استطاعته تقرير نوع النظام الذي يحقق له نواياه وافكاره وقد صرح يوما لصديقه المحامي الافرنسي — المار الذكر — بعزمه على الشروع في اصلاح البلاد مبتدئا من المدارس حالما يؤول العرش اليه هكذا : ان طلاب المدارس المسلمين والمسيحيين والاسرائيليين وحتى الوثنيين – ان وجدوا – يجب أن يجلسوا معا في المدرسة على مقعد واحد فيعتادون منذ نعومة أظفارهم حياة الاخوة والائتلاف فلا يعودون ينظرون فيما بعد إلى بعضهم بعضا نظرة العدو اللدود . وكان صديقه المحامي الافرنسي يحمل اليه المؤلفات التي تبحث عن الانقلابات وحرية الشعوب فينكب على مطالعتها في عزلته بشوق ولذة . وكثيراً ما فكر في الغاء وظيفة اغاوات الحرم ونشر المعارف بين طبقات النساء والغاء الاسر بينما كان هو نفسه أسير عمه وقد صرح يوما في خلال حديث كان يدور حول تهذيب المرأة ما يأتي : إن الجهل منتشر ويا للأسف بين نسائنا انتشاراً مخيفا . وربما ترتابون في صحة قولي لو شرحت لكم ما يعتريني من الحزن والانقباض والكره في أثناء وجودي بدائرة الحريم . حقا ان الأويقات التي اقضيها هناك لهي عبارة عن عذاب اليم لي وضجر عظيم يكاد يقتل النفس .

انتهى

الجزء الأول

من هذا الكتاب ويليه الجزء الثاني

عصر السلطان عبد الحميد

وأثره في الأقطار العربية

١٨٧٦ - ١٩٠٩

حياته الخاصة والعامة ، وقائع عصره ، تفاصيل عهده وإدارته في الامبراطورية العثمانية ، سياسته في الأقطار العربية

مؤلف تاريخي هام مصور تصدره في سلسلة أجزاء متتابعة

المكتبة الهاشمية لأصحابها محمد هاشم الكتبي وشركاه بدمشق

يتناول أخطر فترة في التاريخ العثماني استغرقت ثلث قرن كامل يعنى عناية خاصة بالقضايا العربية ويميط اللثام عن كثير من الخفايا والأسرار التي سبقت الدور الحميدي

يطلب من المكتبة الهاشمية بدمشق ومن سائر المكاتب المشهورة في الأقطار العربية ومن باعة الصحف

اهم محتويات الجزء الثاني

فتوى خلع السلطان مراد

مرض السلطان مراد وخلعه

أهم وقائع العهد المرادي القصير

مأساة مروعة في دار مدحت باشا

الصرب والجبل الأسود يعلنان الحرب على الدولة

اهم محتويات الجزء الثالث

سلطنة الحسان في قصور آل عثمان

السلطان عبد الحميد في طفولته وحداثته وشبابه

وصف حفلة تقليد السيف للسلطان عبد الحميد

يلدز وأشهر قصور السلاطين في أستانبول

السلطان عبد الحميد في حفلة صلاة الجمعة «السلاملك»